موقع مصطفى نور الدين عطية

هوامش
Haoamish



إلي صديق إسرائيلي .. ترجمة وتلخيص لكتاب : المفكر ريجس دوبريه.. مصطفى نور الدين

نشر بصحيفة الأهالي الأسبوعية – القاهرة بداية من 25 اغسطس 2010 واستمر في العديد من الحلقات

الخميس 26 آب (أغسطس) 2010, بقلم مصطفى نور الدين عطية



"إلي صديق إسرائيلي" كتاب "ريجس دوبريه" يتجاوز الخطوط الحمراء في تحليل التاريخ والديانة اليهودية بقراءة جديدة سياسية للتوراة ويتعرض للوضع الراهن لإسرائيل والقضية الفلسطينية بشجاعة نادرة. والكتاب نظرة نقدية للنفاق في السياسة الدولية والعجز الارادي لعدم تقديم حل للقضية الفلسطينية. وللمعاملة الخاصة التي تتمتع بها الجالية اليهودية في الغرب من الولايات المتحدة إلي أوربا. كتاب يتخطي المحظورات في الخطاب الدبلوماسي الرسمي للدول والإعلام.

والأهمية الإضافية أن كاتبه هو المفكر "دوبريه" (ولد في 1940). حصل علي الأستاذية في الفلسفة في الخامسة والعشرين من عمره والدكتوراه في 1991. وبدأ حياته كمناضل يساري وسافر إلي أمريكا اللاتينية في 1965 ورافق تشي جيفارا. سجن 4 سنوات في بوليفيا وعاد لفرنسا في 1973. وعينه الرئيس الاشتراكي "فرنسوا ميتران" كمستشار خاص ولرئاسة لجنة العلاقات الدولية ما بين 1981 و1985. ثم ترأس المعهد الدولي للفلسفة في 1998. ويحتل منصب الرئيس الشرفي للمعهد الأوربي

لعلوم الأديان. ويصدر مجلة دورية "ميديوم" وله عشرات الكتب في الأدب وتحليل الفكر والديانات والسياسة الدولية والفرنسية بمنهجية نقدية.
بكلمة فهو مفكر مستقل عندما يكتب ولعب دورا في قلب الدولة أو ظل علي مقربة منها فيعرف أكثر من مجرد المشاهد البعيد عن قلب صناعة القرار السياسي. ومن هذه الازدواجية تأتي الأهمية الخاصة لكتابه لتبرر عرضها بشكل مطول وترجمة فقرات مهمة توجز مجمل القضايا التي تعرض لها. وبرغم ذلك فلقد تحاشينا التعرض لتفاصيل كثيرة تاريخية ودينية وأدبية وغيرها مر عليها "دوبريه" دون توضيح ولكن ليدعم تحليله. إذ يعني التعرض لها كتابه عشرات الهوامش لم يقم بها إذ أن رسالته موجهة من عالم إلي مؤرخ كبير و يفترض في القارئ سعة ثقافية. فلقد كتب "دوبريه" بلغة راقية، تلغرافية مكثفة، عالمة، مشحونة بالتلاعب اللغوي والرموز التاريخية والسياسية والدينية. وكان من الضروري إضافة تفاصيل لما تعرض له "دوبريه" بكلمة واحدة ليتمكن القارئ غير الفرنسي من متابعة ما يقصده.

"إلي صديق إسرائيلي"، صدر عن دار "فالماريون" مؤرخ في مايو 2010، في صورة رسالة (116 صفحة) موجهة إلي صديقه "إيلي بارنافي"، سفير إسرائيل سابقا في فرنسا ، ونشر رده علي رسالته في نفس الكتاب (في 28 صفحة)..
فوق الاحتمال
الرسالة تكشف أنه بلغ احتمال الفيلسوف "ريجيس دوبريه" منتهاه مما يحدث للفلسطينيين فألقي بحجره الأخير في عش الصداقة التي تربطه بإسرائيل وهو مدرك ألا يجلب له ذلك إلا المتاعب من أصدقائه قبل أعدائه. وهو ما بدأ يتحقق بدخول كبار المثقفين اليهود بالرد العنيف عليه.

ودوافع كتابه – الرسالة تبدأ من حكاية. إذ أوكل "جاك شيراك"، الرئيس السابق، للفيلسوف "دوبريه" القيام بجولة في الشرق الأوسط لتقصي الأمر في مشكلة التعايش بين الديانات في "الأرض المقدسة". وقدم "دوبريه" تقريره في صورة ملاحظات دبلوماسية تكشف جوهر الصراع الإسرائيلي – الفلسطيني وأسبابه بصراحة. ورفضت السلطات الفرنسية ملاحظاته وتبرير الرفض بأن "كل ما توصل إليه صحيح ولكن هنا في فرنسا لا يمكن أن نقول ذلك علانية". وأصدر "دوبريه" حصيلة جولته في كتاب بعنوان "ساذج في الأرض المقدسة" (454 صفحة في 2008) ولم يضمنه ملاحظاته الممنوعة التداول.. وتلك الملاحظات هي ما يمكن أن نتصورها في كتابه " إلي صديق.." الذي صرح بأنه قرر كتابته بعد رفض ملاحظته وسياسة التهرب والتعتيم السائد حيال إسرائيل.

وفي السطور التالية نلتزم في معظم الأحيان بلغة المخاطبة التي أعتمدها المؤلف في ال كتابه وبالمصطلحات إذ باستخدام كلمات بذاتها يبدأ الصدام مع التعتيم والتهرب"..

ولن أتعرض لانتقادات اليهود الفرنسيين لكتاب "دوبريه" لأنها كلها تدافع عن إسرائيل مهما كانت سياستها وتعترض علي حقه في التعرض للمسألة الإسرائيلية علي النحو الذي أتبعه. أما الانتقاد الذي نوجهه نحن إليه فهو أنه لم يذهب بأطروحته كمؤرخ حتي نهاياتها المنطقية الصحيحة إذ وضع بنفس المستوي ما حدث من تغيير في حدود دول تاريخيا وبين استعمار فلسطين من قبل أفراد أتوا من دول العالم ليطردوا شعبا من أرضه.

وبرغم ذلك يعتبر كتابه شهادة نادرة ولذا نترك له الكلمة. فالكلمات والتعبيرات التي يستخدمها "دوبريه" وإن كانت مألوفة كتاباتنا السياسية إلا إنها لا تكاد تستخدم في فرنسا إلا من قلة نادرة مستقلة من المفكرين والإعلاميين. ومن هنا أهمية كتابه الذي يتعرض للكثير من التفاصيل المهمة التي لا يكاد يذكرها غيره إلا بحرص وانتقاء كلماته حتي لا يتعرض للهجوم الشرس عليه بل أحيانا للمحاكمة بتهمة معاداة السامية.
ويلزم الوعي أن المثقف "دوبريه" مثله مثل الغالبية العظمي من المثقفين الغربيين الذين يدافعون عن حقوق للفلسطينيين يدافعون بتوازي عن حق إسرائيل في الوجود. إذ هناك عقدة ذنب غربي حيال اليهود لا يستطيع أن يتخلص منها وسوف تتضح تلك الحقيقة في السطور لاحقا بشهادة "دوبريه" الذي يتعرض لها دون مواربة. وكذا فحق الوجود لإسرائيل مسألة منطقية في عرف البعض إذ أن أصحاب القضية لا يقولون بغير ذلك ولا يصح أن يكونوا فلسطينيين أكثر من أصحاب الشأن.

وسوف نضمن هذه الصفحات الرد الذي كتبه "بارنافي" مهما اختلفنا معه فهو يبلور وجهة نظر مغايرة في بعض الأحيان لتحليلات "دوبريه" بالإضافة أنها تظهر أيضا كيف يحلل كمؤرخ معارض لسياسة إسرائيل فهمه لتاريخ المنطقة وكيف يدافع عن صهيونيته وبماذا يتمسك ولماذا وما الحل الذي يراه للصراع العربي الإسرائيلي.

1- عن الشجاعة، فلنتحدث

عزيزي إيلي، لقد تحليت ببصيرة نافذة وصدق في كتابك الأخير (اليوم أو ربما هيهات). فنحن علي يقين عند التعرض للقضايا الشائكة من إننا سنفقد أكثر من نصف أصدقائنا. و أيسر علي شخصيا التحاور مع يهودي من إسرائيل عن التحاور مع أحد الفرنسيين الذين يلوح بعضهم أكثر إسرائيلية من الإسرائيليين. أنت حاد مع ذويك وسأكون بدوري عنيفا مع مواطني.
يحدد المفكر طبيعة رسالته وأن الوقت حان ليكف عن الصمت فهو: "كتاب لكي أتسق مع نفسي ومع ما شاهدته. ففي النهاية أنا إنسان وليس بغريب علي كل ما هو إنساني. فها أنا أتخلص من حجر علي لساني فلا أريد أن أموت قبل أن أقول ما أراه في تلك المسألة".
ولا يخفي "دوبريه" خوفه علي مصير إسرائيل وتعلقه بوجودها : "يجمد الدم في عروقي الخوف من أن يشهد أحفادي عودة 7 ملايين يهودي إلي أوربا والولايات المتحدة والي أوطانهم الأم التي هاجروا منها."

ويحدد "دوبريه" نيته في التعرض للقضايا بقوله : "عند المشي علي قشر البيض لا نعرف أين نضع القدم لذا سأضع قدمي في الطبق وأتطرق للموضوع بصراحة تامة برغم ما سوف يثيره ذلك من غضب. ويحاول تقديم ضمانات تحميه من الهجوم عليه بالكشف عن أنه شارك شخصيا في إعادة "باربي" مجرم الحرب أثناء الحرب العالمية الثانية من مخبئه في "بوليفيا"." (نشير إلي أنه تمت محاكمة " كلاوس باربي" في 1987 وحكم عليه بالسجن المؤبد بتهمة ارتكاب جريمة ضد الإنسانية. وكان"باربي" رئيس "الجيستابو"، أي بوليس الدولة السري الألماني، في 1943 لمدينة "ليون" الفرنسية وبأوامره أعدم الكثير من رجال المقاومة وأرتكب جريمة تسليم 44 طفلا يهوديا من قرية "إزيو" الفرنسية إلي النازيين وماتوا في معسكراته).

ويضيف "دوبريه" حجة أخري ليبين حسن نيته في الانتقاد بأنه تعرض للإهانات في مصر ولبنان عندما تحدث في ندوات عامة عن حقيقة المحرقة و"أن أثرها يظل مطبوعا مثل كي حديد ساخن". وأخيرا يقول بأن أحد أجداده يهودي وشغل منصب نائب عمدة حي باريسي قبل الحرب. فما يقوله هو رأيه كابن من أبناء الحضارة الغربية وهو بشكل ما رد منه علي ما صرحت به "تسيفي ليفني"، وزيرة خارجية إسرائيل سابقا، حين صرحت بأن: "الحضارة الغربية وشعوب المحيط الأطلسي هم سكان إسرائيل" وأن عملية "الرصاص المسكوب" علي غزة هي عملية تشن باسم "العالم الحر وقيمه المقدسة".

2- عن الصهيونية

ويتوجه لصديقه المؤرخ والدبلوماسي:"عرفت نفسك يوما بأنك صهيوني مناصر للفلسطينيين. أي تطالب بدولتين متجاورتين. هذا التعبير يعني أشياء كثيرة ولا يعني شيئا أيضا. إلا في حالة وضع قاعدة للاستثناء تعتبر الغريزة الوطنية حكرا علي الشعب المختار، فإن مبدأ القوميات خرج من صلب الثورة الفرنسية ومن ايطاليا وعندما يطبقها شعب فعليه تطبيقها علي الآخر من لحظة تجسده كشعب ويطالب بأن يشكل قومية علي تلك الأرض (حتي ولو تم ذلك باحتلال أرض بالقوة العسكرية).

تقول : "إنك مناصر للفلسطينيين" ولكن أي فلسطين ؟ ديمقراطية أم دينية ؟ قبائلية، إقطاعية، تحكمها المافيا، بربرية مع نسائها أم متعددة الديانات، نشطة ومنفتحة علي العالم الخارجي ؟ أنت مدافع عن الصهيونية. ولكن أي صهيونية تعني ؟ الصهيونية الماركسية ؟ الدينية ؟ صهيونية حزب العمل، المحافظين الجدد، الممارسة للفاشية؟ فهناك 5 أو 6 أنواع للصهيونية منذ المنشأ. ففي كل مرة لا نعرف ماذا تعني هل هي ديمقراطية أم اشتراكية أم جمهورية أم غربية. فبأي صهيونية أصاحبكم الطريق ؟"

ويتساءل "دوبريه" : "هل المطلوب هو الغفران للصهيونية "بجبهة ثور" باسم الصهيونية بوجه إنساني ؟ وهل علينا أن نغفر عمليات الانتقام والعقاب الجماعي اليوم باسم حرب تحرير الأمس ؟ وأن نقول : إن عملنا كلل بالنجاح ؟ مستحيل."

ثم يتعرض للسلاح ذي الحدين الذي تستعمله الصهيونية في إثارة مسألة المحرقة ومعسكرات الاعتقال النازية وكيف أن استخدام الصور من قبل الفلسطينيين حول وضعهم يكشف حجم مأساتهم : "إن للقرن العشرين ثورة تجسدت في ابتداع الصورة وانتقالها السريع وبقاء تأثيرها في شبكة عين الإنسان. إذ تنتشر صور هياكل عظمية ترتدي بيجامات مخططة خلف أسلاك شائكة وتقوم مؤسساتكم بهذا بعلم وحنكة في الأنصاب التذكارية والكتب فإذا وضعنا صور الناجين في 1945 من معسكرات الموت علي صور لمعسكرات اللاجئين الفلسطينيين تجعلنا نقتنع بوجود معسكرات الاعتقال النازية. إنها الحرب الإعلامية التي لا مناص منها."

ويعود للتاريخ ليكشف حقيقة تستحق التدقيق من قبل المتخصصين في حرب 1948 لأنه لا يذكر المصدر الذي اعتمد عليه إذ يقول: "ففي الأمس هزم جيشكم جيوش 7 دول. في الحقيقة كانت قواتكم مكونة من 65 ألف مقاتل في مواجهة 40 ألفا من العرب. ولكن بالأمس لم يكن دافيد اليهودي هو القوة النووية الوحيدة في المنطقة والذي يسيطر علي السماء والبحر وعلي الاتصالات والدائم العدوانية خوفا من أن يحدث اعتداء عليه."

ويحلل "دوبريه" ما آل إليه حال الحكم السياسي في إسرائيل الآن وما طرأ من تحولات وكأن هناك تباينات كبيرة في سياسة الأحزاب السياسية الإسرائيلية عندما تصل للحكم وأن بعضها أفضل من الآخر : "لقد تبخر حزب العمل والآن يحكم الجنرالات الحكومات وتحولت تعاونياتكم، أنتم قدامي الأوربيين، إلي النمط العادي وتعددت الجاليات بداخلها علي الطريقة الأمريكية وأصبحت مجرد نماذج معتادة. وتحولتم إلي اليمين وخاصة مع النزوح الكثيف للروس الذين انمحت لديهم كل آثار الاشتراكية. وأصبحت "الكيبوتز" التي كانت ذات خصوصية شبيه بمجتمعاتنا العادية بفوارق الطبقات فيها والتمتع بالمتعة المعتادة والأنانية."

ويستنتج المحصلة التاريخية للضحايا طوال العقود الأخيرة بأنه: "بلغ عدد الموتي من العرب في الأربعين سنة الأخيرة فقط عشرة أضعاف من ماتوا من الإسرائيليين بيد العرب بالإضافة لمن قتلوا من العرب بيد العرب."

خطيئة أصلية

"إن خطيئتكم الأصلية تسمي بالعربية النكبة أي الكارثة. لقد طردتم 800 ألف من السكان من أرضهم بقوة السلاح. وهدمتم القري وقتلتم المدنيين حيث وجدوا وأجبرتم آخرين بالقوة للخروج بصورة مروعة." ولكي يعفي "دوبريه" نفسه من حمل مسئولية ما يقوله لتحاشي الهجوم عليه يضيف: "كل هذا يقوله بشجاعة متناهية ومصداقية بعض مؤرخيكم الجدد بعد نصف قرن من وقوعه. (نذكر منهم: "ايان بابيه" و"ميكائيل فارشوفاسكي" و"شولو ساند"و"ايديت زارتل" و"توم سيجيف"). فحينها لم يفجر هذا النوع الخاص من التطهير العرقي إثارة للمشاعر في العالم الواسع فلم يكن التلفزيون قد وجد ولم يكن هناك مراسلون للصحف." ثم يسخر بتصور الرد علي ما قاله " "ما مقدار هذا بالقياس لما عانيتموه ؟ وكذا لما شاهدته نهاية الحرب العالمية من تشريد لسكان مجتمعات أخري وضم لبلدان للقوي المنتصرة؟"
ويقدم "دوبريه" قراءة للتاريخ لا تتسم بالموضوعية إلا في الجانب الأول منها إذ يقول :"إن إسرائيل هي نتاج لفترة الصراع الاستعماري وأنها نموذج استعماري مثلها مثل دولتين من كل ثلاث دول أعضاء في الأمم المتحدة."

في تلك الفكرة مغالطة تاريخية يدركها "دوبريه" وسوف يقول بذلك فيما بعد عندما يقارب بين وجود إسرائيل ووجود أمريكا أي بهجرة أوربية للقارة الجديدة والتخلص من السكان الأصليين. والمغالطة أنه يبرر التواجد اليهودي في فلسطين وكأنه مسألة تاريخية عادية وهو غير صحيح. فإذا كان صحيحا حدوث نزاع مستمر علي حدود الدول وضم سكان لهذه الدولة أو تلك أو إبعاد بعض منهم وترحيلهم إلي دول مجاورة فإن معظم الدول لم تستورد من أنحاء العالم بشرا ليحلوا محل السكان الفعليين إلا في بعض المناطق مثل القارة الأمريكية وأستراليا وجنوب أفريقيا.

ويواصل "دوبريه" تصوره لطريقة الاستيلاء علي فلسطين والدهاء الذي تمتع به قادة اليهود ولا يخف ميوله الصهيونية التي يقر بها منذ البدء صراحة ولكن يواصل انتقاده للممارسات: "إن الجميع يشهد بعبقرية قادة إسرائيل في الماضي حينما لعبوا بدهاء مع الأمريكان والسوفيت وحصلوا علي أسلحة تشيكية ومساندة فرنسا ولجأوا في ذات الوقت للإرهاب والدبلوماسية ليحولوا قطاع ضيق إلي أرض مأهولة. هذا أمر يؤسف له ولكن لم يكن منه بد. غير أن المشكلة ليست هنا. المشكلة في أن إسرائيل لم تتوقف عن غرس الحديد في الجرح وصب الملح عليه ليصبح الذي لابد منه غير محتمل. غير المحتمل هو أن "الدولة الاستعمارية" لم تتوقف عن مزيد من الاستعمار ومواصلة طرد الفلسطينيين ومواصلة تجريدهم من جذورهم. فمنذ 1967 هدم 18 ألف بيت فلسطيني

وسجن 750 ألف فلسطيني في لحظة أو أخري من حياتهم. ومازال في السجون الإسرائيلية اليوم 11 ألفا. وفي الضفة الغربية يوجد ما بين 500 و600 حاجز تفتيش يمارس فيها التنكيل والوحشية المجانية. فإنه من غير المحتمل سن قانون عودة يسمح لأحد سكان "كوكب مارس" أو من نيويورك للحضور لإسرائيل ليعامل سكانها الأصليين كأجانب وليجبرهم علي الحصول علي تصريح مرور لرعاية حقولهم وليروا بأعينهم شجر الزيتون وقد جف.

2

عن الصهيونية .. تكملة القسم الأول

لكي يمنح انتقاداته بعدا فلسفيا ليخفف من كلماته يضيف: "ليس بمكتوب كأمر أنه لكي يستعيد شعب عزته معناه أن يذل ويشرد بشكل مبرمج جاره
ولا أن يقهره ويرعبه ويهينه. ولم يكتب أنه لكي ينجو بشر من الموت إلى الحياة يعني أن يحكم على مئات الآلاف من المسلمين والمسيحيين ليمروا من الحياة إلى الموت. فنحو 43 % من الفلسطينيين يعيشون تحت حد الفقر. وليس بمقبول أن يمنع
الفلسطينيين من الحركة على 22 % من ارض فلسطين التي حددتها الأمم المتحدة بعد تنازلهم عن 78 % من المساحة التي كانت مقررة لهم. بالإضافة إلى ما سببه "الجدار" في تشتيت الأسرة في الجانبين."

ويضف "دوبريه" تصوره لما كان يجب أن يحدث في الزمن البعيد كحل مثالي للصراع ولكن فات أوانه: "إن الفرصة الأولى التي أضعتموها لعلاج الجروح كانت بعد حرب الأيام الستة حينما زادت الأرض التي تسيطرون عليها بخمسة أضعاف إذ كانت فرصة للتوصل لاتفاق "السلام مقابل الأرض".. ولكنكم بدلا من ذلك أصغيتم لنداء "قرن الشوفار" : أي لنفير الحرب المتأصل في أعماقكم وهذا هو السبب. وهو ما تنبأ به "ياشاياهو ليبوفيتش"، الصهيوني بعيد النظر، حينما قال أن في هذا الانتصار "كارثة بالمعنى التاريخي للإنسانية ولدولة إسرائيل. ولكن كان حظه مثل حظ كل الأنبياء". (هذا الفيلسوف يتكلم أيضا عن وجود يهودية نازية في إسرائيل وعن إسرائيل باعتبارها الدكتاتورية الوحيدة في العالم الحر.)

ويذهب "دوبريه" أبعد في تحديد سبب غضبه: "ما يدعو للأسى أنكم طوال تلك السنوات لم تلطفوا من الوضع. فنحن أمام لغة جديدة تطالب الذي وقع عليه الاحتلال أن يحترم في أي مكان وفي كل ظرف أمن من يحتله دون أن ينعم بذات الأمن من قبل المحتل. في حين أنه ليس من حق أحد محاصرة شعب ولا إخراج بشر من أرضهم. ولا يحق سحق شعب بطوفان نيران. فليس هناك ممارسة لحكم بإعدام ولكن تقتيل منهجي يقع ليس فقط على الجاني ولكن أيضا على النساء والأطفال والجيران. أنكم لا تتكلمون عن جدار ولكن عن "سياج أمن". وتصيحون مطالبين بحدود آمنة ومعترف بها دون أن تحددوا بدقة ما هي تلك الحدود (الحدود لكم وللآخر)."

ثم يعرج "دوبريه" في انتقاده للمجتمع الدولي المتآمر بدوره ولمواقفه المزدوجة في التعامل مع طرفي الصراع وخاصة من قبل الولايات المتحدة والدول الأوربية: "هذه اللغة الجديدة التي تم اصطناعها بدهاء نراها أيضا عندما يفرض المجتمع الدولي على الفلسطينيين وحدهم شروطا يلزم احترامها. فأربعة مليار دولار سنويا تمنحها الولايات المتحدة لكم دون أي شروط في حين مقابل مئات الآلاف من الدولارات معونة تفرض على الفلسطينيين الشروط القاسية. وتلك هي فائدة الهيمنة التي توحي بأن الواقع هو كما هو في حين أنه غريب. كما لو أن سلطات السجون لدينا صرحت بالإفراج عن المحبوسين في سجن ولكنها أغلقت الباب الخارجي بالضبة والمفتاح وخفضت كمية الطعام إلى النصف ومنعت إمداد الأدوية إلى العيادات وقطعت الكهرباء. ففي غزة سوف يصبح الفلسطينيون أنحف عودا ولكن لن يموتوا. فهو ليس بحصار وإنما "نظام غذائي" حسب تعبير، "دوف فايسجلاس"، مستشار رئيس وزرائكم السابق "شارون". أو كتصريح أحد البرلمانيين الإسرائيليين بأن حماس "تمارس القتل الجماعي" ؟ الرأفة بنا هل تريدون إقناعنا بأن الفلسطينيين سيقومون بارتكاب جريمة ضد الإنسانية."

ويبدأ "دوبريه" في التشكيك في صلابة المشروع الصهيوني ومخاطر دورة التاريخ التي حطمت نظما أخرى تصورت أنها حلقة نهائية في التاريخ ثم مخاطر أن يتحول الضحية إلى جلاد: "إن اليهودية ظلت الديانة التوحيدية الوحيدة التي لم تكن ديانة دولة وذلك منذ سنة 70 ميلادية وتحطيم المعبد وانتهت تلك الحقيقة مع عام 1948. أي نصف قرن مقابل 20 قرنا. وها نحن نسمع من رسميين إسرائيليين قولهم "إنهم (العرب) يريدون موتنا إذن لنا الحق في قتلهم" ؟ إن بناء دولة مكلف ولكن الأكثر كلفة هو دولة "غجرية" أي في حالة تنقل مستمر. وإذا كانت البربرية تعم العالم فما هي المعجزة التي تنجي ضحايا أكبر البربريات وأحفادهم

من عدم السقوط فيها بدورهم. فمن كثرة تكرار حكامكم: إن السلام لكي يتحقق فالقوة لازمة، خضعوا لتلك القاعدة القائمة دون كلل والتي تعني أنه يجب أن نكون بربريين مع الضعفاء. وتحولت التوراة إلى "الإلياذة" (ملحمة هوميروس اليونانية) أي لنشيد القوة الأبدية. فمن يضمن لكم أن يكون مصير "الثورة الصهيونية" مختلفا عن مصير كل من الشيوعية والمسيحية والبروتستانتية ؟"

ويواصل: ففي الخمسينات والستينات بهرنا "بالكيبوتز التعاونية" مثلها مثل "السوفييت" في العشرينات والثلاثينات. "ولأنه تغفر لكل نظام مثالي لفترة أخطاء تحدث فإنه تأتي لحظة وتصبح هذه الأخطاء غير محتملة. ولقد زادت تجاوزاتكم، حتى أنتم، كل ما يمكن احتماله."

ويتباكى "دوبريه" على الزمن "الجميل للصهيونية" الذي أحبه في شبابه مثله مثل غيره من الغربيين الذين توهموا فيه النموذج التقدمي للمجتمع في قلب مشرق متخلف ثم انحدر هذا النموذج بدوره ليصبح مرتبطا بالماضي القديم ويعلن بوضوح تشاؤمه: "في ذاكرة الغرب كانت الصهيونية النموذج الذي تحقق بالإرادة. وانزلاق النموذج يذكرنا بأن لا شيء يستثنى من قانون الجاذبية نحو السعادة والغرق في الحياة اليومية. فالمدينة الفاضلة تذهب برأسها العاري وتعود الأسطورة بالطاقية اليهودية. وفي قمة الحداثة يعود التقويم العبري وتتحول "دولة لليهود" إلى "دولة يهودية". أي العودة التامة لصهيون الجغرافي والتقويمي والديني. فإذا كان "الإله الأوحد" صنع "الشعب الأوحد" وإذا كانت قوميتكم ليست قومية إلا بالتوراة فمنطقي أن حسكم القومي كان دينيا ومازال؟ ثم يضاف استبدالكم للغة "اليديش" (لغة الجاليات اليهودية في بلادهم الأصلية) باللغة العبرية يعتبر توفيق باهر. ولكن العودة للغة العبرية يحمل في داخله عودة "دولة الحاخامات والجنرالات" التي كانت تعتبر كابوسا بالنسبة "هرتزل". ولقد كتب المؤرخ "جيرشوم شوليم" في 1926 بعد هجرته لفلسطين يقول "هذا البلد مثل بركان يغلي بالكلام حول ما يعرض تجربتنا للمخاطر وبخاصة من العرب. ولكن هناك خطر يقلق أكثر من الأمة العربية وهو إحياء اللغة العبرية.. فهذه اللغة المقدسة يستحيل تفريغها من محتواها المقدس. وليس مستبعدا أن يعود هذا المعنى المقدس بعنف ضد من يتكلمون العبرية فليس صحيحا إنها أصبحت مجرد لغة عادية كما يقال. ولقد تحقق هذا في تغيير أسماء المدن باللغة القديمة بل أن مجلس الأمة يسمى "كنيست". والسؤال هل يظل من احتمال لأن يمنح لليهود قومية ذات هوية غير دينية ؟ فدولة القانون مازالت بدون دستور حتى اليوم. فالواقع أنتج ليس دولة علمانية ولكن دولة لا ينفصل فيها المعبد عن الدولة وإن ظلت الدولة غير خاضعة للمعبد. ولكن دمج قومية في دين بالإضافة لجيش يقسم جنوده أمام حائط المبكى والكثير منهم يرتدي الطاقية الدينية لا يبشر بالخير."

3- حول معادة السامية

في ظل ترديد مستمر في الغرب بأن معادة السامية تنمو وخاصة في أوقات تزايد العدوان الإسرائيلي في منطقة الشرق الأوسط يضع "دوبريه" تحليلا موضوعيا لما يحدث في الغرب منذ نهاية الحرب العالمية الثانية والتحولات التي أنهت هذا العداء للسامية وعلى النقيض تزايده ضد المهاجرين من العرب والمسلمين وليس ضد اليهود. فيستمر في مخاطبة صديقه "بارنافي" : "يلوح انك خائف من معاودة تفشي معادة السامية في الغرب كما كتبت في مقدمة ترجمة الكتاب الإسرائيلي "إسرائيل، مستقبل مشكوك فيه" (تأليف ريتشارد لوب واوليفيه بروشوفيتش – 2009). ولكن في هذه المخاوف تسرع فيما يخص فرنسا أما في البلاد المسلمة فهي حقيقة ويكفى الاستشهاد بحالة مصر أو ماليزيا وتتزايد مع تزايد المهانات في الجبهة. أما في فرنسا البعيدة عن الجبهة فهناك معادة للسامية واختفاء لمعادة السامية على السواء. فلأول مرة منذ 1848 لا يوجد برلماني واحد معادي للسامية ونفس الشيء في الصحافة. ولن يندهش أحد إذا كان مرشح انتخابات الرئاسة في 2012 من أصل يهودي. فوجود إسرائيل هو جزء من هوية الجمهورية الفرنسية."

أما عن الحوادث البسيطة التي تقع ليهود من قبل بعض فقراء الأحياء من المهاجرين من المغرب أو أفريقيا وغيرهما فهي في علاقة عضوية بالصراع الإسرائيلي الفلسطيني ومعظم هؤلاء القادمين من مستعمرات سابقة يجهلون معني كلمة معادة السامية. ولقد خرج مليون فرنسيا في مظاهرة في 1992 للتنديد برسم الصليب النازي في مقبرة يهودية.

فعندما قال الجنرال "شارون"، في 2004، إبان زيارته لباريس: "إن معادة السامية تتأجج في فرنسا"، رد عليه "ادوار بالادير"، وزير العدل سابقا، ويهودي : "إن ما يقوله شارون إهانة لفرنسا".

فالخوف غير المبرر اليوم هو من طبيعة مختلفة وليس ضد المعبد اليهودي ولكن ضد المآذن وضد العرب. وهو خوف يتأصل يوما بعد يوم ويسمح به بل ويتم تشجيعه. فهو الخوف الذي نسمعه يتردد في قاعات البرلمان والصحافة وعلى لسان الوزراء. وأصبح من الأمور المعهودة أن يكتب على أغلفة المجلات "العرب". فمن يجرؤ اليوم أن يكتب "اليهود" ؟ فكل المناظرات الغبية التي تدور حول الحجاب واللحية والجلباب والهوية الوطنية لا تجرح الطاقية اليهودية وإنما المقصود بها هو "إسماعيل."

ويتطرق "دوبريه" بشجاعة تستحق التحية للوضع الاستثنائي والامتيازات التي تتمتع بها الجالية اليهودية بالمقارنة بغيرها من قبل الدولة ولا يحرص في انتقاء كلماته برغم السخط الذي سينتج عنها إذ يقول: "فاليهودي هو المفضل أو الأثير في الجمهورية. إلا أن المفضلين قد يثيرون الغيظ. فقضية معادة السامية تحتل المقام الأول في قيم الجمهورية كنتيجة لتفرد المحرقة. ونظريا فحسب، لا تعترف الجمهورية بأي عبادة (شعائر) ولكن في الواقع توزع اهتمامها على أماكن العبادة المختلفة والأعياد الدينية. فمع نهاية صيام (يوم الغفران) أو "يوم كيبور" يتوافد على معبد باريس المركزي العديد من الوزراء في نفس الوقت مع قادة أحزاب المعارضة. فمن لا يقبل منهم أن يضع قدمه في كنيسة "نوتر دام" (أكبر كنائس باريس) للمشاركة في شعائر جنازة لشخصيات رسمية لا يمكنه رفض دعوة المعبد اليهودي. أما نهاية صيام شهر رمضان فتنعم بتواجد وزير الداخلية وشئون العبادات فقط ثم يتلوه لقاء أخر مع عمدة باريس. ولا تحظ الكنيسة الكاثوليكية إلا بأقل مما سبق من تواجد. أما البروتستانتية فالاحتفالات تتم دون أن يذهب أحد. وفيما يخص الجالية السوداء التابعة للكنيسة الانجيلية فيزورها مدير البوليس (ليقول : ارني بطاقاتك الشخصية لو سمحت !!). هذا الترتيب الهرمي للديانات مقاسا بالوجود الرسمي للدولة ورجال السياسة يتضح منه أن اليهودية برغم أنها ديانة الأقلية قد احتلت مركز الصدارة بدلا من الكاثوليكية."

ثم يتطرق لكثير من الأمور التي لا يعرفها المواطن العادي إذ لا تثار علانية في الإعلام فيقول: "مثال آخر. تقول المادة الأولى في الدستور الفرنسي بأن كل المواطنين سواسية أمام القانون. وفي سنة 2000 تم إصدار تشريع انتقائي يقضي بمنح تعويض مالي للأيتام الذين مات ذويهم كضحايا الاضطهاد المعادي للسامية. وساد إحساس بالحرج نتيجة مطالبة غير اليهود بالمعاملة بالمثل فغيرت الدولة التشريع بعد أربع سنوات ليشمل التعويض "الأيتام الذين مات ذويهم في المعسكرات النازية أو اعدموا بالرصاص أو ذبحوا في عمليات المقاومة أو الممارسة السياسية."

ونفس الشيء ينطبق على المساعدات المالية التي تمنحها الدولة للمدارس الخاصة بما في ذلك المدارس ذات الطبيعة الدينية. إذ هناك عقود مبرمة لإعانة من الدولة للمدارس اليهودية ذات التوجه التقليدي التي تلقن الثقافة والتاريخ وحب إسرائيل وكذلك لحضانات "لوبوفيتش" للأطفال التي تختارهم طبقا لمعطيات ربانية صارمة. وعلى النقيض لا تنعم المدارس الإسلامية بذات السخاء."

ويواصل "دوبريه" التعرض لقضية حرجة بشأن قتل شاب يهودي، في 2006، بصورة وحشية من قبل جماعة إجرامية بعد حبسه كرهينة وتعذيبه وترأس تلك الجماعة "يوسف فوفانا"، فرنسي المولد ووالده مهاجر من "ساحل العاج"، وسجن على ذمة القضية 19 متهما شاركوا في الجريمة في أحكام تراوحت بين سنتين و30 سنة.. يقول "دوبريه": "ومثل آخر، وهو ما حدث في القضية المعروفة باسم "عصابة البربريين" الذين قتلوا شابا يهوديا (إيان حليمي) وأصدرت المحكمة الحكم بالسجن المؤبد على المتهم الرئيسي وأعتبر المدعي العام الحكم عادلا بتوقيع أقسى عقوبة. ولكن الجالية اليهودية رفضت الحكم وأجبرت المدعي العام على التراجع عن رضاه وتقدم بدعوى استئناف للحكم ليرضى الجالية ولكي تصدر أحكاما أكثر قسوة من السابقة. وكان ذلك التدخل والتراجع سابقة لم تحدث من قبل وأثارت غضب رجال القضاء."

ويواصل "دوبريه" تفاصيل بشأن التفرقة في التعامل مع الجاليات الدينية الفرنسية فيقول: "مثال آخر، فعندما يحدث تدنيس لمعبد أو لمقابر يهودية يهرع وزير من باريس وحاكم المحافظة لمكان الحادث في حين لو خص التدنيس مسجد أو مقابر للمسلمين فرئيس مجلس البلدية يكفي. فهل الحدث كان اعتداء أم حريق ؟ قبل التحقق من الواقعة التي يتضح أحيانا أنها أكذوبة يسرع رئيس الوزراء بتناول "الميكرفون" ليدلي بتصريح لإدانة معادة السامية ويذاع الخبر كل ربع الساعة فيما يخص الجالية اليهودية وليس فيما يخص الأخرى." ولم يذكر "دوبريه" أن العديد من الإدعاءات تبين بعد التحقيق كذبها وأن العدوان على أماكن يهودية كانت بفعل يهودي طرد من عمله بها. وأنه في حادثة إدعاء سيدة بالاعتداء عليها في قطار ضواحي باريس ثبت أنه لم يحدث وأنها اختلقت الحادثة بادعاء أن بعض الأفراد مزقوا ملابسها ورسموا على جسدها الصليب النازي. وأنه لم يتم القبض على المعتدين على أماكن العبادة ولا المقابر لا اليهودية ولا المسلمة.

ويتعرض المفكر لتفصيل إضافي يخص مأدبة العشاء السنوية التي ينظمها "كريف" أي (المجلس الممثل ليهود فرنسا) فيقول بأنه "في تلك المأدبة يلزم أن يتواجد كل الوزراء ومن يطمحون في منصب وزاري ويتحملون إبان المأدبة تأنيب رئيس المجلس. وفقط الممنوع من العشاء هو "حزب الخضر" لأنه من المتعاطفين مع الفلسطينيين وبرغم أن الخضر لا يكفوا عن المطالبة بأن يتم قبولهم كجزء من المجموعة الوطنية. وبجانب أن من يشارك عادة في المأدبة كان رئيس الوزراء فأصبح الآن رئيس الجمهورية شخصيا وينقل التلفزيون مباشرة حفل العشاء."

ولم يتعرض "دوبريه" لتفاصيل هذا التأنيب وهو باختصار إصرار على القول بتزايد حوادث معادة السامية في فرنسا وضرورة العمل على مواجهتها بفاعلية أكبر ولكن الأهم هو الانتقادات التي توجه للحكومة لسياستها الخارجية حيال الفلسطينيين وكان ذلك صارخا حينما استقبلت فرنسا "ياسر عرفات" للعلاج وبشكل أخص كرد فعل لمراسم توديع جثمانه رسميا إذ ذهب "جاك شيراك"، رئيس الجمهورية حينها، مرتين لتحية أبو عمار حيا وميتا. وشارك رئيس الوزراء ورئيس البرلمان الفرنسي وكبار رجال الدولة في مراسم توديع مهيب لجثمان عرفات ملفوفا بالعلم الفلسطيني ومحمولا بحرس الشرف الذي تخص به فرنسا أبناءها الذين ماتوا في ساحة المعركة.

ولا يغفل "دبريه" ما يحدث في الإعلام ولكنه يقلل من تأثيره في المستقبل فيقول: "لا يجب المبالغة في تأثير الجماعات الصغيرة التي تحكم الحياة الباريسية بشكل دائم حيث تتواجد في افتتاحيات المجلات الأسبوعية والأعمدة الدورية ويتوج كل منهم الآخر بالفيلسوف الكبير والمخرج العبقري والممثلة المدهشة والصحافي الكبير... فأمراء الفكر يدورون بالفعل ولكنهم يدورون حول أنفسهم. إذ في عصر الانتقال السريع من موضوع لآخر في المواقع والمدونات على انترنيت سينتهي عهدهم. وفي انتظار أن يتم ذلك فإن كوكبة الفكر تسهر على سعادتكم على مائدة رئيسنا وفي الراديو والتلفزيون والجرائد اليومية والأسبوعية باستثناء واحدة أو اثنتين تتمتعان بعناية صغيرة وتسمى صحف "مناصرة للفلسطينيين" قليلة التأثير."

وانتقاد السياسة الخارجية له أهميته إذ منذ ثلاثين سنة تشن كل الأحزاب السياسية حربا دون هوادة ضد اليمين العنصري المتطرف الذي يمثله "جان ماري لوبن" ومن هنا يظهر التناقض في العلاقة مع إسرائيل ويكشف عنه "دوبريه" يقوله: "لقد استقبلت باريس دون خجل ولا تأنيب ضمير وزير خارجيتكم "إفيجور ليبرمان"، وهو "لوبن إسرائيلي" في حين أن باريس طردت إلى "فينا" وباستهجان "لوبن النمسا". فهكذا يوجد صوتان.. معياران. فالمتحدث الرسمي باسم حكومتك يمكنه التحدث في الراديو في ساعات الاستماع الكبيرة دون أن يناقشه فلسطيني فيما يقول وسيكون مدهشا لو حصل العكس."

ويصل "دوبريه" إلى استنتاجاته ويطرح تساؤلات هي أيضا في صيغتها النافية إجابات : "كل هذا التكريم والمدليات الذهبية للضحايا لا تجلب دائما الفوائد. إذ وجه لي يوما أب تلميذ السؤال : "لماذا تقدمون كل هذا الاعتذار عن الذنوب في معسكر اعتقال "اوشفيتز" النازي ولا تعتذرون لسكان "سطيف" ؟" (قتل الفرنسيون في 8 مايو 1945 حسب المصادر الجزائرية 45 ألف شخص أثناء مظاهرة ويقدر بعض المؤرخين العدد بأقل ثلاث مرات) ففرنسا وليست ألمانيا هي من قتلت أولادنا؟ وماذا عن مدغشقر ؟ والهند الصينية ؟ كل هذا لا يعنيكم ؟ ولماذا لا يشغلكم أمر سجين مزدوج الجنسية فرنسي- فلسطيني هل هو ليس بإنسان فعندما يكون الرهينة فرنسي- إسرائيلي (شاليط) تعلق صوره على وجهات مباني مجالس المدن ؟ هذا هو ما تهمس به الأفواه في الأسرة والأسواق والمدن. هل هو غير صحيح وعلينا أن نسد أذاننا ؟"

ويسعى "دوبريه" بما يشبه ضربة عنيفة على منضدة الحوار لكي يفيق العقل الفرنسي والأوربي من عقدة الذنب التي تثقل كتفيه وتمنعه من اتخاذ مواقف داخلية وخارجية متسقة وعادلة والكف عن النواح على جرائم الأجداد الذين ماتوا مثلهم مثل ضحاياهم فيقول: "لقد كانت فرنسا مع الدنمرك أقل البلدان التي سلمت يهودها للنازيين وتواجد فيهما اكبر عدد من "العادلين" الذين اخفوا اليهود عن عيون من يبحثون عنهم." ثم يدخل على الوراثة ليعينه في دعم فكرته بقوله: "فأنا لا اعتقد أن هناك انتقال وراثي يجعل منا متعاونين أبديين وبالفطرة "مع النازيين" مثلما لا اشعر بالحاجة عن التكفير عن أخطاء أعدائي. ولا أضع على الجمهورية الفرنسية اليوم وزر الجرائم القبيحة التي ارتكبها نظام حماية ألماني مقره مدينة "فيشي" بعد موت الجمهورية بالاستسلام."

أنت تقول بأنه من القبح الخلط ومقارنة ضحايا اليهود إبان النازية بضحاياكم أنتم من الفلسطينيين وأنت محق فما يتعرضون له ليس من ذات الصنف. واعترض بدوري على الخلط واعتبار "المناصر للفلسطينيين - متعفن". ويسخر بقوله "فملائكتكم الذين يحرسون السفينة المقدسة لا يكفون عن التدقيق بالعدسات المكبرة في كل كلمة وفصله. فمعادة السامية كوسيلة للاتهام هي لكسر

عزة الأخر وأصبحت كالعفن "المكارثي" ينمو في حارتنا وصفوف مقاعدنا." (نسبة للمكارثية وهي اللجان التي شكلها السيناتور الجمهوري "جوزيف مكارثي" وكانت تحاكم المثقفين والفنانين، في الولايات المتحدة، بتهمة الشيوعية في منتصف الخمسينات من القرن الماضي). ويضيف "دوبريه": "لقد تزايد عدد المخبرين المتخفين في أثواب كتاب لاصطياد أهل القلم مثل الكاتب "جان جنية" وعالم الاجتماع "بيير بورديو". بل أن ملفات بعض المفكرين اليهود المخالفين في الرأي مازالت في دور الفحص ووضعوا في "القوائم الرمادية" مثلما حول الحال مع الفيلسوف عالم الاجتماع "ادجار موران".

ولتوضح ما يقوله "دوبريه" تجدر الإشارة إلى أنه ظهرت كتابات ومقالات تتهم "جينيه" بمعادة السامية بعد كتابه عن "صبرا وشاتيلا" وكتابات أخرى عن فلسطين وعن فرنسا إبان الحرب العالمية الثانية وتم توجيه نفس التهمة إلى"بورديو" لكتابه "الورثة" من قبل بعض المفكرين من اليهود. أما "ادجار موران" فقد رفعت "جمعية فرنسا – إسرائيل" ضده قضية بسبب مقال نشر في صحيفة "لوموند"، في 4 يونيو 2002، بعنوان " إسرائيل– فلسطين : السرطان" ينتقد فيه بعنف السياسة الإسرائيلية ويقول بأن استخدام كلمة "المحرقة" للتعبير عن تفرد معاناة اليهود قلل من شأن ما حدث ويحدث في العالم من مآسي أخرى (ومنها ما يتعرض له "الغجر" و"هنود أمريكا") وتمنح التبرير للاستعمار وفرض "جيتو" على الفلسطينيين. وأن السرطان الإسرائيلي – الفلسطيني نتاج معاناة تاريخية لشعب يخاف من انعدام الأمان الجغرافي وللطرف الأخر من تعاسة شعب مقهور في حاضرة ومحروم من حقوقه السياسية." ووقع المقال مع "موران" كل من الكاتبة "دانيل سلناف" والمفكر السياسي "سامي نائير" وصدر ضدهم الحكم بغرامة ثم براءة في الاستئناف).

ويضع "دوبريه" معادلة ثلاثية الأطرف في تفسير حالة الركود السياسي الراهن فيقول: "إن العالم العربي في حاجة للاعتقاد بمؤامرة يهودية عالمية لتبرير هزائمه. وعالم الأطلسي فقد توازنه بعد اختفاء الشيوعية ويحاول استرداد عافيته مع العدو "الإرهابي". فربما يكون أكبر هموم مجتمع هو اختفاء الهموم بها. ولستم باستثناء إذ أن إدارات الأمن لديكم تعمل كل ما في وسعها ليظل السكان في حالة حرب دائمة وإقناعهم بأن السلام فخ." ويضيف ساخرا: "نتفهم المسألة إذ ما الذي سوف يئول إليه حال الجيش المهيمن لو تحقق فعليا خطر السلام ؟ وما العمل بعد توقف ضخ مليارات الدولار كمساعدات خارجية تمنح لمواجهة حالة التوتر وانعدام الأمن ؟ ويسخر: "هذا لا ينف أن هناك إيران في الأفق المنظور كما كان هناك "صدام" بصواريخه "سيكود"؟"

ويخص "دوبريه" مسألة حيوية تتعلق بفترات الصراع في الشرق الأوسط وسلوك الجالية اليهودية حيالها واختلافها في ذلك عن موقف الجاليات العربية فيقول: "أنه لمطلب مبدئي ألا يدفع يهود الشتات في فرنسا ثمن المعاركة التي تقومون بها هناك. ولكن أليس هذا المبدأ هو الذي يلزم أن تذكروا به رؤساء الجالية اليهودية ؟ فإمام مسجد باريس لا ينزل إلى شارع "الشانزلزيه" حين بفوز فريق الكرة الجزائري. ورؤية حاخام فرنسا الأكبر يتظاهر في ظل الأعلام الإسرائيلية أمام السفارة الإسرائيلية لتأيد دخول الدبابات إلى غزة يتعارض مع القواعد ويثير غريزة العلمانية. فإقحام الرب في معارك ذات طبيعة تبعث على الشكوك يلزم العدول عنه في ظل الجمهورية... فحذر أخوتك. إذ أن رفع المعابد لأعلام إسرائيل ودق الطبول يصعب المسألة. فكيف نقنع المغاربة بعدم الخلط بين يهود فرنسا ودولة إسرائيل ؟ وحينما يقول وزير لديكم بأن "جيش الدفاع" هو جيش اليهود فكيف لا تندهش عندما ينظر لك بقال الحي (العربي) بغرابة بعد رؤيته في التلفزيون لمشاهد مأساوية."

ويكتب "دوبريه" بعنف واستغراب للخلط السائد منذ سنوات في الغرب وخاصة في فرنسا والذي يرى في كل من ينتقد سياسة إسرائيل أو معادة الصهيونية كمعادي للسامية فيقول: "هل فقدت الصواب ؟ كيف أكون على غير علم ؟ أصحيح أن معادة السامية، تم تجميدها بترسانة قانونية، وتقهقرت دون أن تختفي لأنها من الآن فصاعدا تسمى معادة الصهيونية ؟ بل يطالب التقرير المقدم لوزير الداخلية في 2004 سن قانون ليعقب عليها."

لتوضيح ما قاله "دوبريه" نضيف بأن من كتب التقرير هو الروائي "جان كريستوف روفان" الذي عين سفيرا لفرنسا في 2007 في "السنغال" حتى يونيو 2010 وفي 2008 أصبح عضوا بالأكاديمية الفرنسية. واعتبر "روفان" في تقريره: "أن معادة الصهيونية جريمة تستلزم سن قانون خاص يعاقبها كنوع من معادة السامية وأتهم اليسار والمطالبين بنظام عالمي جديد وبعض الجاليات العربية بأنهم من المعادين للسامية.

ويواصل "دوبريه" تساؤلاته الحائرة والمنددة: "أهو الحب المجنون في الغرب؟ إن ذلك يعني أن نضع في نفس السلة أشخاص مختلفين وأن نضرب رؤوس من فيها بمطرقة وأن تجمع هذه السلة كل من "فوريسون" المؤرخ المكذب بحدوث المحرقة مع المؤرخ اليهودي "فيدال – ناكيه" و"مارك ايلمان" الذي قاد التمرد في جيتو فارسوفي في 1943 والفيلسوف المتخصص بامتياز في الفلسفة السامية "لوي ماسنيون" و"روجيه جارودي"، المعادي للسامية. فجميعهم معادي للصهيونية.

ويرد "دوبريه" على واقعة الكتابات إبان تفجر انتفاضات ضواحي المدن والتي رأى فيها بعض الكتاب حركات عرقية – دينية كارهة لفرنسا قام بها عرب وأفارقة حسبما كتب، في نوفمبر 2005، المفكر الصهيوني "الان فينكلكروت". فيقول "دوبريه": "أيعقل أنه عندما تتفجر الانتفاضة في ضواحي فرنسا الفقيرة أن يقال أن من ورائها هم مجموعة من الأئمة المعادين للصهيونية ؟ لقد سمعنا سابقا عن البلشفية–اليهودية وعن التروتسكية–الهتلرية واليوم نسمع عن الإسلامية–الفاشية (مثلما قال جورج بوش وكما يردد اليمين المتطرف في أوربا)). ولكن الحياة تقدم لنا واقعا آخر فأنت وأنا جمعتنا لقاءات متعددة مع يهود معادين للصهيونية منهم الملحد ومنهم المتدين. بل أن المعادي للسامية وصهيوني هو النمط المعهود بل الأفضل. فلقد كتب الروائي المعادي للسامية "داريو لا روشيل" مقالا يقول فيه (تحيا الصهيونية) في 1942. وشهد الكاتب "بول موران"، تحت قبة الأكاديمية الفرنسية: " لقد تحول اليمين المعادي للسامية إلى صهيوني في حين أن اليسار، صاحب التقاليد في الدافع عن دريفوس اليهودي، إلى مناصر للفلسطينيين."

ومن المعروف أن العلاقات توترت بين فرنسا وإسرائيل في فترة حرب 1967 ولم تغفر إسرائيل ولا الجاليات اليهودية عبارة انتقاد وجهها لها "شارل ديجول" ويحاول "دوبريه" الدفاع عن الجنرال: "إن من يقتبسون كلمات الجنرال "شارل ديجول" بشأن إسرائيل يختصرونها في الكلمات : "اليهود شعب نخبة واثق من نفسه ومتسلط". في حين أن العبارة بكاملها تقول ما يتحقق اليوم. إذ كتب الجنرال ديجول : "إن البعض يخشى أن يتغير اليهود الذين بقوا حتى الآن مشتتين، ولكن ظلوا كما كانوا عليه طوال التاريخ، أي شعب نخبة، واثق من نفسه ومتسلط. فالخوف هو من أن يتحولوا إلى أصحاب طموح جارف وغزو، حينما يأتي اليوم الذي يتجمعون فيه في مكان مجدهم الماضي كأمل، يهز المشاعر، صاحبهم تسعة عشر قرنا."

ويضيف أنه تلا ذلك كلام حزين لديجول "عن سلسلة الإخفاقات اللاحقة والتي تتحقق من احتلال غير شرعي للأراضي التي أخذت بالقوة. إذن مقاومة للاحتلال، إذن إرهاب، ثم مناهضة إرهاب وبناء عليه الدخول في حلقة مفرغة."

ويختم هذا القسم من الرسالة بتوجيه السؤال لصديقه "بارنافي": "أخبرني عن رجل دولة في العالم تمتع ببعد نظر يضاهي هذا التحليل الذي قدمه غداة حرب الأيام الستة في نوفمبر 1967 ؟ وهل يمكن أن تجدوا في المستقبل الكثير من المعادين للسامية أمثاله بدلا من رجال الدولة الحاليين الذين يغسلون أيديهم مما يحدث أمامهم لتبرئة أنفسهم من المسؤولية دون فعل شيء؟ لو حدث وتحقق ذلك سوف تكسبون الوقت ونحن أيضا."

4- عن المحرقة، اليوم

في هذا القسم من الكتاب – الرسالة يتعرض "دوبريه" للتفاصيل ليبرهن مرة أخرى أنه لم يعد بالغرب معادة للسامية ويشير إلى المخاطر التي يمكن أن تنتج من الاستغلال المتزايد لهذه الجريمة فيقول: "انطفأت موجات صدمة المحرقة بعد اختفاء أخر من عايشها، ومع روتين احتفالات التكريم التي أضحت عادية، فقدت إسرائيل بهذا الاختفاء درعها المعنوي في المواجهة المباشرة مع أعدائها القدامى إذ أصبحت مواجهة لا أساس لها. وهو ما تسميه أنت :"نهاية اجل تسديد حساب اشوفيتس". وإذا تجرأت أقول بأن ان هذه المخاوف لها سندها. فالدين مازال ماثلا. ولكن السؤال هو كيف نسدد ديوننا وما طبيعته الإجبارية.

لقد توقفت وبسرعة المحاولة التي رمت إلى التقليل من القتل الجماعي لليهود أو قالت بعدم حدوثه. ففي غرب أوربا قضي علي محاولاتهم ليس فقط بقوة القانون وإنما ثقافيا أيضا. فمن من المؤرخين اليوم يجهد نفسه وبشحذ قلمه للرد على "فوريسون" بعدما كتب أفضل المؤرخين (بيير – فيدل ناكيه) في دحضه؟ وفي شرق أوربا برغم أن الاعتراف والتكفير عن الخطأ لم يتقدم بذات الدرجة التي تمت بالغرب إلا أنه انتهى الزمن الذي كان متحف "أشوفيتس" يضع فيه أسماء اليهود دون تميز لهم ويخفيهم في قائمة مع فئة من عشرين قومية من ضحايا الفاشية.

ويقول بأن الاوربيين يشاركون في شعائر لم يطالبهم من أحد بالمشاركة فيها. وهذا يحدث دون تفنيد أو بحث وتحليل نقدي أو ابتداء من ذكريات دقيقة. وبرى "دوبريه": "إن سلام المجتمع لا يتحقق إلا بديانة مدنية مثلما تصور ذلك "جان جاك روسو" في حين أن المخاطر تأتي من الانصهار الجاري بين "أعياد فصح" و"محرقة" و"أعياد استقلال" وكأنها ذات الشيء. فالمخاطر تقع من تحويل ذكرى تاريخية إلى ذكرى مقدسة.

فالمخاطر تأتي من الاستخدام السياسي للدين ولم يفلت منه مجتمع. فلكل ديانة دعاتها ومتشدديها وبهلواناتها والطبقة الحاكمة الإسرائيلية تنفذ بهم وببرود أعصاب سياستها مثلما فعلت الطبقة الحاكمة في الاتحاد السوفيتي بديانة التقدم الماركسي وكذلك في فرنسا في ظل الجمهورية الثالثة (حتى الحرب العالمية الثانية) حينما هيمنت فكرة الجمهورية كديانة للوطن.

ويرسم "دوبريه" صورة لما حدث ويحدث من تحولات في العقل الأوربي لدرجة جعلته حبيسا لعقدة الذنب وتجسد ذلك فيما هو سياسي واجتماعي فيقول أنه: "من الوهم تصور أن الديمقراطية لا دين بها ولا "ميتافيزيقا" وإلا كيف تتم مواجهة العدم ؟ فهناك ضرورة لنقل قدسية جسد المسيح إلى جسد الملك ومنه إلى جسد الأمة". ولقد انتهت "ساحة الشرف" وانتهى عصر المغامرات الوطنية وحدثت تحولات تجسدت في أن الاحتفالات لم تعد تقام أمام النصب التذكاري للجندي المجهول ولكن أمام النصب التذكاري لشهداء اليهود المجهولين وأمام بوابة معسكر الاعتقال النازي وتتم الجوانب التربوية ليس عبر ما يكتب فحسب ولكن بالعرض على الشاشة. فنقش الوعي الذي تمارسه الدولة يماثل تشيد ضريح تذكاري ويستند كل منهما على الشعائر والتكرار والقانون. ففي أوربا يتجسد ذلك في رغبة رئيس الجمهورية "ساركوزي" في ان يتبنى كل طفل بالمدرسة اسم طفل مات ضحية للنازية وكأنه تعميد ثان للتلميذ. وكذا سن قانون على الصعيد الأوربي لمعاقبة من "يقلل من شأن" الجريمة ضد الإنسانية بل يعتبر جنحة "التآمر في التقليل من شأنها".

وللتذكير طرح "ساركوزي" فكرة تبني كل تلميذ لأسم طفل يهودي مات في معسكرات النازي ومعرفة تفاصيل حياته إبان مأدبة عشاء "كريف" في 13 فبراير 2008 ورحب رئيس الجالية اليهودية بالفكرة إلا أن كبار المثقفين بما في ذلك شخصيات يهودية مستنيرة والأساتذة رفضوا الفكرة لما تحمله من عبء نفسي على الأطفال وتراجع الرئيس عن تنفيذها.

ويصل "دوبريه" إلى استنتاج في غاية من الأهمية بوضع نهاية لعقدة الإحساس بالذنب فيقول: "فالايجابي من الاحتفاظ بالذكرى التاريخية هو أنه يبنى عقلية تقاوم حدوث مثل تلك الجرائم ثانية. غير أن المخاطر تحدث مع رواج الاتجار بها ومعظم المتاجرين بالمعاناة نادرا ما يكونوا اكبر من عانى منها ولذا فإدخالها كأساس لحسن السير والسلوك لعشرة أجيال قادمة لن يجلب إلا نتائج سلبية. وذلك لأننا نحن لم نعد مذنبين عن تلك الجرائم وأنتم بدوركم لم تعودا الآن ضحايا. فالخطر هو أن يظل علينا أن نعلن عن ندمنا إلى ما لانهاية وأن تعيشوا للأبد في حالة حداد."

ويعرج "دوبريه" إلى الكلام مباشرة عن إسرائيل ويعدد ثلاث عواقب سلبية في التفكير والممارسة أولها هي "تجميد التاريخ وكأن أعداء الأمس البعيد في التوراة هم أنفسهم أعداء اليوم. فإذا كانت بعض الشخصيات مثل "أمين الحسيني" أو "أنور السادات" على علاقة بالنازية والحبيب بورقيبة على علاقة بالفاشية فإن ذلك ليس بالأمر النشاز إذ أن معظم قادة المستعمرات تحالفوا مع معسكر "المحور" تطبيقا لمبدأ "عدو عدوي صديقي". ولذا لو اعتبرتم كل العرب نازيين فهو يعني استحالة التعايش أو حتى وجود أمل في التوصل للتصالح وهو ما يعني ثبات على ذات الوضع الانتحاري."

الخطر الثاني "تصوركم الدائم ان الأسوأ آت وتبرير القتل والتدمير وتقليلكم من جرائم حروبكم بحجة ذكرياتكم عن الجرائم ضد الإنسانية التي كنتم ضحيتها. إن تدمير منزل مواطن فلسطيني هو في نظره الخطيئة الكبرى استنادا لقيمه الثقافية". ويحيل "دوبريه" إلى سلسلة من الصور التي تنشر على انترنيت وتضع جنبا لجانب مشاهد مماثلة لما كانت قوات النازية تقوم به من ممارسات حيال اليهود وما يقوم به الجيش الإسرائيلي ضد الفلسطينيين. ويستخلص "إن الشيء الوحيد الغائب في صور المقارنة هو غرف الغاز. فسوف يكون مصير الفلسطينيين عدة سنوات من السجن أو إجهاض سيدة تحت ابتزاز جندي إسرائيلي: "أمك ستذهب للمستشفى إذا تعاونت". ويعاود "دوبريه" التساؤل : "هل ذكرياتكم تمنحكم كل الحقوق على من ليست تلك ذكرياته وتحرمه من الحصول على حقوقه ؟"

الخطر الثالث: هو انغلاقكم على أنفسكم وتمجيدكم لجيش الدفاع الذي لا يحق لأحد المساس به لأنه في عرفكم هو الذي يحميكم من محرقة أخرى. وهذا الانغلاق لا يجعلكم تحتفلون إلا بذكرى ضحاياكم وفي غمرة احتفالاتكم تم نسيان ضحايا آخرين للنازية من الغجر والمقاومة والمعاقين وأتباع كنيسة "جوفا" والشيوعيين والمثليين. بالإضافة لنسيان الضحايا من الأرمن والراونديين والكونغوليين.

وتقولون لتبرير ذلك بأن: تلك هي معاناتكم وآلامكم وسركم الذي لا يمكن لأحد أن يعيه ويخصكم وحدكم؟ وبرغم ذلك ففي كل عام في فرنسا يقام إحياء لتلك الذكرى رسميا ولا يكون علينا إلا النظر من بعيد لهذا السر بعيون مسمرة وإحساس بالذنب كمدانين.

"فالأمة برمتها عليها أن تقر بالجريمة وأن تحي ذكرى الرعب كل سنة" ! فإذا كانت الولايات المتحدة تصون وحدتها من التفكك من عبارة "الرب يحفظ أمريكا" التي تطبع على "الدولار" بجانب وجود "كتاب مقدس" في كل غرفة فندق فإن الشيء الوحيد الذي يلتف الأوربيون حوله ويوحدهم هو إحياء ذكرى تحرير معسكرات الاعتقال النازية. ففي تلك المناسبة تتواجد شخصيات على المستوى الأوربي ومن كل دولة لا تلتق ولا تتفق عادة فيما بينها. وفي فرنسا تعتبر مأدبة العشاء السنوية التي ينظمها "كريف" لقاءا وطنيا،، فالحكومة بجانب المعارضة وأحزاب اليمين بجانب اليسار. فالهياكل العظمية لأطفال معسكرات الاعتقال أصبحت تشكل قسما من وعينا المتعالي."

ويتعرض "دوبريه" لحقيقة بشأن استمرارية التطرق بكل صوره للمحرقة بمناسبة وبغير مناسبة فيكتب: "بدخول مكتبة لاقتناء أخر الكتب التي حققت نجاحا أجد طاولة كاملة مخصصة للمحرقة. وإذا استمتعت إلى الراديو أو شاهدت التلفزيون فلا يمكن إلا أن نجد من يتكلم عن النازية و"النجمة الصفراء" أو يعرض العديد من الأفلام التسجيلية أو التاريخية أو مسلسل تلفزيوني حول الموضوع. فنحن ننشأ ونتعمد في وسط هذا المحيط النادم والممتلئ بالحسرة. فأوروبا لم تعد تحي ذكرى المناضلين كمثل أو كنماذج ولكن تقدس الضحايا. وسن قوانين رادعة ومنح تعويضات ..."

ويقدم "دوبريه" تفسيره لأسباب خلق الكيان الإسرائيلي بعد الحرب العالمية الثانية بقوله" "من الضروري الوعي بأن "حقكم في الاستقلال ليس بسبب المحرقة. فالقتل الجماعي لليهود عجل بميلاد إسرائيل فقط وجعل قبوله أسهل. فهذه الشرعية هي نتاج قرار تم التصويت علية بأغلبية في الجمعية العامة للأمم المتحدة. فالمحرقة هي التي تؤسس خوفكم وهذا الخوف بدوره هو الذي يخيف جيرانكم أكثر فأكثر. بجانب أن التقاليد والثقافة اليهودية طوال 25 قرنا لا يمكن اختزالها في الثقافة الإسرائيلية. فالمحيط الثقافي في إسرائيل لا يمكن ان يختزل في المذابح النازية بعد أن هاجر إليها اليهود "السفراد" ومن جاءوا من الشرق بتاريخهم الطويل العريق والذين لم يعانوا بنفس الدرجة حيث عاشوا.

5- *خطر الانطواء على الذات*

في هذا القسم من الرسالة يستخدم "دوبريه" لتحليل السياسة الإسرائيلية الاصطلاح الطبي "حالة الانطواء على الذات" الذي يصيب الطفل ولا يتواصل مع العالم المحيط به ويتقوقع في عالمه الداخلي. يقول: "نسمع منكم عبارات تردونها دائما:"ليس من حقنا ارتكاب أي خطأ فوضعنا السكاني لا يسمح لنا بمثل هذا" و"نحن في حالة هاشة وشديدي الضعف". فهل يعقل هذا الإقرار بالوهن لبلد هو مخزن سلاح ويهيمن فيه الجيش على السلطة ؟ فالقول بالضعف تلاه مبالغة في التسلح واستخدام مبالغ فيه للسلاح في أي غرض وخلف مشاعر مبالغ فيها من كل نوع وبنفس المبالغة. أليس من الأفضل ان تهابوا من قوتكم ذاتها ؟"

ويواصل مع محاولة التخفيف بوضع كلمات تقريظ للشخصية اليهودية ثم ليواصل انتقاداته فيقول: "الذي يخيف خائف. أي تناقض ! فمجموعة من البشر لا نظير في عبقريتها الفردية جاءت نتيجتها عبقرية جمعية مؤسفة ومحزنة. فإذا قارنا قوة النيران بينكم وبين جيرانكم فهي واحد في مقابل مائة لصالحكم بما في ذلك القوة النووية. فانتم القوة الأعظم في المنطقة ومعمل تجارب التكنولوجيا الأكثر تقدما التي تمتلكها القوى العظمى ويحميكم حائط صواريخ مضاد للصواريخ أخر صيحة."

ويقول "دوبريه": "إذا كنتم بالفعل ضعفاء فذلك فقط فيما يخص التفجيرات الانتحارية ولكن "حماس" قامت بهدنة ليس بفضل "الجدار الأمني" الذي يمكن اختراقه بسهولة بحسب تجربتي الشخصية ولكن هدنة نتيجة عدم وجود ثمرة أو نتيجة من التفجيرات. هل أنتم ضعفاء أمام الصواريخ البدائية التي تطلق عليكم ؟ هذا لا يحتمل ! ويسخر من ذلك: "وكيف يحق لنا ان نقيم عليكم هذه

المحاكمة السخيفة والسمجة ؟ فانتم لا تسعون للاستحواذ على ثروات جيرانكم : فهم لا ثروة لديهم. ولم تعودوا في حاجة لقوة عملهم : فقوة العمل الرخيصة تأتيكم من أماكن أخرى، من إفريقيا والهند وأوريا الوسطى. وإذا كانت أراضيهم تهمكم فهو فقط لتحافظوا على ذويكم من الشر الفادح. تقولون "غادرنا غزة بمحض رغبتنا فانظروا ماذا كان جزاؤنا : آلاف "القسام" تسقط في حديقتنا وجندي أسير لكي نفرج عن إرهابيين" !

ولكي يظهر "دوبريه" المفارقة بين ما تقوم به إسرائيل وانعكاسه على الرأي العام الإسرائيلي يقص ما شاهده أثناء جولاته. ففي "بيروت" رأى ما بقى من "صبرا وشتيلا" وعشرات الأطفال الذين بترت أعضاء من جسدهم "بسبب قنابلكم العنقودية". ثم شاهد غرف التعذيب التي يستخدمها أعوان إسرائيل في "خيام" ودمار بالجولان ومعسكرات اللاجئين في الأردن. ثم بعدها ذهب إلى "القدس" وسمع ردود الفعل عن كل ذلك في إسرائيل من "أشخاص مهذبين" فكانوا يتحدثون "وكأن جنودهم قاموا بإنقاذ أطفال يهود من معسكرات الاعتقال النازية."

ويضع "دوبريه" أصبعه على فلسفة المستعمرين في كل وقت وهو رد غير مباشر على أطروحات "ساركوزي" والفلاسفة اليمينيين الذين أرادوا أن يدرس في الكتب المدرسية "أن الفترة الاستعمارية حملت ايجابيات للشعوب التي استعمرتها". وأثارت تلك القضية ضوضاء كبيرة في الوسط الثقافي والتعليمي وتم التراجع عنها. يقول "دوبريه": "من القديم نتكلم عن الحضارة ونمارس الهيمنة. فالمستعمر الأوربي كان رب أسرة فاضل وزوج مثالي إلا انه في يومه المعتاد مارس القهر على شعوب المستعمرات بدعوى الدفاع عن الأرامل واليتامى وتحرير المرأة والقضاء على العبودية. ويقود ذلك للتعريف الذي يعطيه المؤرخ "هنري لورانس" للامبريالي : "فهو الشخص الذي يخدع نفسه عندما يقوم بأفعاله ولا يرى طبيعة سلوكه أي هو السقوط في أكذوبة لا يريد الاعتراف بأنها أكذوبة."

ويتهكم "دوبريه" قائلا : "كادت دمعه تنحدر من عيني وأنا أشاهد سفير إسرائيل في باريس يتحدث في تلفزيون بلدنا. إذ في الوقت الذي كانت تتحول فيه غزة إلى حطام تحت نيران طائراتكم ومدافعكم وبحريتكم جاء السفير ليحدثنا عن رعب الحياة تحت وابل صواريخ "القسام" والخوف الجاثم على مستعمرة "سديروت" والأطفال المجبرين على الاختفاء بالملاجئ وهبوط أسعار سوق العقارات !"

ويعلق "دوبريه" بأن صواريخ "القسام" قتلت 13 شخصا في عشرين سنة بينما قتلت الطائرات الإسرائيلية في 3 دقائق 16 شخصا في نوفمبر 2008 وذلك خلال الهدنة التي طبقتها حماس وهتكتها إسرائيل. وأنه "في الحروب التقليدية بين جيش نظامي وأخر غير نظامي تكون الخسائر واحد إلى عشرة أما أنتم فرفعتم النسبة لتكون واحد إلى مائة في حربكم على غزة. إذ مات 1450 فلسطينيا من بينهم 410 طفلا و104 سيدة مقابل موت 13 إسرائيليا.(طبقا لأرقام اليونيسيف)".

يقول "دوبريه": "الإنسان اليوم هو ما يرى. فمن فتحة دبابة لا يرى الإسرائيلي إلا خيال رفاقه. أما جدار الفصل فهو عصبة على العينين وكذلك يبعد الإغراءات أو المغريات الجسدية والنفسية. وهو أيضا يفرق بين الفلاح الفلسطيني وأرضه وبين التلميذ ومدرسته وبين المرضى والمستشفيات وبين اليتامى وملاجئ اليتامى المسيحية غير أنه يمنعكم أيضا من رؤية كل ذلك."

ويبرهن "دوبريه" على ما سبق بإدعاء أن: "ليس من النادر ان نتقابل في "القدس" مع أشخاص لم يروا في حياتهم نقط تفتيش إلا في السينما ولا يتخيلون أن في "رام الله" و"غزة" إلا مخلوقات غريبة أو حيوانات تمشي على قدمين. هذا باستثناء الإسرائيليين المدافعين عن حقوق الإنسان الذين يتجاوزوا التعليمات ويرفعون الضمادة عن أعينهم."

ويستنتج "دوبريه" فلسفة تاريخية تمارس في الغرب أيضا كل يوم فيقول: "ونعرف أنه عندما يضع مجتمع ما كلمة بدلا من وجه ويغلق أقلية في فئة (عربي، تركي، يهودي...) ويخفي الخصوصية في عمومية فهو مجتمع في سبيله لممارسة سياسة العزل والتجريم."

ويطبق ذلك على ما حدث إبان العدوان الإسرائيلي على غزة فيقول: "ففي حربكم على غزة لم يشاهد الإسرائيلي ما شاهده العربي إذ فرضتم حصارا بصريا على الشاهد الخارجي من صحفيين وغيرهم إذ كلما قلت رؤية المذبحة نجحت. فما شاهده الإسرائيلي تمركز حول مدينة "سديروت" والإسراع للمخابئ وصفارات الإنذار في المدارس وسقوط سقف منزل، ولفظ "قطة"

لنفسها الأخير !"

ويضيف: "إن تلك الإستراتيجية لم تنجح تماما من سوء حظكم إذ كان مراسلو تلفزيون "الجزيرة" في غزة وفي إسرائيل ولذا فالعرب والغربيون لم يشاهدوا نفس الحرب أي ما يسمى "بالعمى الاختياري". فما لا نراه لا نعرفه. فآلاف من المشاهدين الإسرائيليين شاهدوا بالصدفة الطبيب الفلسطيني "عز الدين أبو العيش" حينما طلبه صحفي على هاتفه الجوال في نفس اللحظة التي قتلت قذيفة دبابة إسرائيلية ثلاث من بناته. ولولا هذا الحدث ما عرف منهم أحد طبيعة ما يحدث في غزة."

ويحكى "دوبريه" عما حدث له إبان زيارته لغزة قبل الانسحاب الإسرائيلي منها فيقول: "إن الواقعة التي أشعرته بالغيظ بسيطة. فسوف يترك جانبا الطابور الصباحي للفلسطينيين في عز الحر لساعات طويلة في انتظار السماح لهم بالمرور والكلاب البوليسية في مواجهة مجموعة من الأطفال التي تبدي رعبها والدبابات في مواجهة التجمعات. فالواقعة هي مجرد مسألة مرور سيارات. إذ كان بسيارة بصحبة "قس" في طريق ترابي "وصدر أمر بإيقاف حركة المرور لأكثر من نصف الساعة وتصور وقوع حادث غير أن تعطيل المرور كان لمجرد انتظار مرور سيارة رباعية الدفع لأسرة إسرائيلية على طريق إسفلت على بعد مائة متر حيث الأطفال ينظرون من النوافذ بسعادة والأم لوحتها الشمس والأب يهفهف شعره." ثم بفتح الطريق "ويتسلى الجنود ويستمتعون بإخراج عائلات فلسطينية من سياراتها لتفتيشها وتركهم يشون في الشمس." وسمع "دوبريه" نصيحة سائق التاكسي الذي يقلهم : "لا تنظر في عيني الجنود واخفض وجهك فهم أسيادنا".

ويضيف أن بعض الإسرائيليين يعانون من التسبب في معاناة الفلسطينيين ولكنهم قلة نادرة. فليست كراهية العرب هي المشكلة وإنما إهمالهم وعدم الاهتمام بأمرهم فتلك هي المشكلة الكبرى. فإسرائيلي من "القدس الغربية" لا يذهب إلى "القدس الشرقية" فهي بالنسبة له عديمة القيمة فالأقرب أن نحدثه عن القمر. فالفلسطينيون لا وجود لهم إلا عندما تسيل دماء في عملية تفجير."

ويقول "دوبريه" عن المجتمع الإسرائيلي مخاطبا "بارنافي": "إن لديكم مشكلة تجاه الآخر. ليس الآخر الذي يطرح في الندوات الفلسفية ولكن ذلك المجاور ويقلقكم بوجوده. وبقدر انتقاد الركوع أمام الآخر فلا توجد أسباب لقبول وضع الآخر على ركبتيه أو حبسه في قفص أو عدم رؤيته."

ويوازي "دوبريه" بين هذا الواقع الإسرائيلي وبين ندوة عقدت بباريس شارك بها سبع شخصيات مرموقة من بينها "إيلي بارنافي" لمناقشة "العلاقة اليهودية – الفلسطينية" ولم يكن على المنصة شخصية فلسطينية واحدة ولو كصورة. أي غياب النصف الآخر الذي تخصه المسألة موضوع النقاش."

ويقدم "دوبريه" صورة لما يراه من "أسلمة" في الجانب الفلسطيني في موازاة "تهويد" في الجانب الإسرائيلي وهو لا يعني هنا "بالأسلمة" دفع الغير إلى التحول للإسلام وإنما العودة للمشاعر الدينية الإسلامية كما هو أيضا بشأن اليهودية مع اختلاف في أن التهويد يلحق بالمكان المحتل واعتباره هدية ربانية. فيقول: "الهوية تتأرجح "بين الكلب والذئب" وتغلب فيها كفة الذئب. فلم تعد المسألة صراع بين حركتين قوميتين تتنازعان نفس الأرض بل صراع بين كتلتين دينيتين من اجل عزة الرب. فيهود ضد مسلمين وليس إسرائيليين ضد عرب لا يعتبر بعملية حسابية جيدة لا بمفهوم الجغرافيا السياسية ولا بالمفهوم السكاني." ويتساءل "دويريه" لعل سبب تأجج المشاعر الدينية والانغلاق على الذات راجع إلى أن نصف يهود إسرائيل هاجروا إليها من العالم العربي.

ثم يتناول بوضوح تصوره لما تسعى إسرائيل له وأكده في كتابات أخرى فيقول: "إن سياسة محاصرة الآخر أو قتله والقول "بأنه لا يوجد شريك نتباحث معه" هو لكي لا يتم تصور دولة فلسطينية ولكن مقاطعة معزولة عرقيا بقلة من الجاليات المحلية المحرومة من السيطرة على حدودها وعلى مجالها الجوي وبدون دبلوماسية. فهو ليس باعتراف واضح بحق في الاستقلال لشعب ولكن مجرد الموافقة على وجود حزام يحمي أمنكم بشكل أفضل. علاوة على رفض اقتسام المياه بالعدل والاستيلاء على الأراضي الزراعية لتصبح من ملكيتكم والملكية سرقة كما يقول الفيلسوف "برودون".

ثم يعاود "دوبريه" التساؤل عن بناء الجدار العازل وهل كان ذلك في توافق مع الرفض القاطع من قبل إسرائيل لمقترحات أو "خطة الملك عبد الله"، في 2002، وهي الخطة التي قبلها أكثر الرافضين في العالم العربي والتي كانت تمثل أقصى أحلام صهيوني في 1948." ويضيف أسئلته ساخرا: "فهل على خصومكم تقع مسئولية عدم تطبيق الحلول العادلة والتي من السهل تحديدها

وتطبيقها ؟ فمقررات طابا واتفاق جنيف ومقررات كلينتون لم ترى أبدا النور ! فهل إرادة واحدة ضد الكل هي المفضلة على المصلحة العامة برغم ما يعنيه ذلك من عواقب بفتح الباب على مصراعيه أمام كل المتشددين ؟ فعبارتكم التي ترددونها هي : "الكل ضدنا .. نحن وحداء في العالم. ثم تغلقون على أنفسكم المنافذ وتصفعون الأبواب وتغضبون."

ويحذر "دوبريه": "برغم هجرة مليون يهودي روسي لإسرائيل فإنه بعد عقد من الزمن سيصبح العرب أغلبية في أرض التقسيم لأنه لن يتحقق الحلم الخيالي بأنه في يوم ما سوف تستيقظون فلا تجدون من أحد في الطرف الآخر. ألا يدفع ذلك رجال السياسة لديكم للتوصل للحلول التي تحققت في أماكن أخرى من العالم ؟ فبدون اتفاق مع "حماس" لن يتم التوصل لحل ولو مرحلي كما لن يوجد حل في لبنان بدون "حزب الله."

ثم يقول أن بإسرائيل من تفهم تلك الحقيقة: "من الضروري أن نتمكن من وضع أنفسنا محل الآخر والتفكير كما يفكر ونستشعر ما يشعر به. والعديد من الإسرائيليين خطوا تلك الخطوة ومنهم على سبيل المثال جمعيات:"رجال الفيزياء من أجل حقوق الإنسان" وأعضاء "بيت السلام" و"التعايش" وصحفيون مثل "جيدون ليفي" و"أميرة هاس" بل نجم الدولة "الان بورج" رئيس الكنيست سابقا وابنة "ديان" و23 طيارا فقدوا وظيفتهم لرفضهم المشاركة في عمليات عسكرية في الأراضي المحتلة اعتبروها غير أخلاقية.

6- *عالم جديد*

في هذا القسم من الرسالة"يشكك "دوبريه" في الأفكار المتفائلة التي يطرحها "إيلي بارنافي" في كتبه ويرى فيها أن الولايات المتحدة هي من يملك الحل لقضية الشرق الأوسط. فيقول: "إن ما يدعو للخوف على إسرائيل لا يتسبب فيه مسألة النووي الإيراني ولا قرار المقاطعة من جامعة الدول العربية أو حركة عدم الانحياز فكل ذلك لم يكن له تأثير على إسرائيل مثل 250 قرارا أصدرتها الجمعية العامة للأمم المتحدة التي لم تعتد بها. فالخوف هو حدوث تحول من قبل الولايات المتحدة عن المساندة المطلقة والدائمة لإسرائيل بناء على اعتباراتها ومصالحها الاقتصادية. إذ نادرا ما كانت سياستها الخارجية منفصلة عن مصالحها الداخلية. وأن هذه المخاوف قد يكون لها مبررها مع تزايد الهجرة الأسيوية ومن أمريكا اللاتينية للولايات المتحدة.

ويتطرق لانتخاب "اوباما" الذي يعتبره "بارنافي"، في كتاباته، الأمل في التوصل لسلام أمريكي. يقول "دوبريه": "في قلب الجاليات اليهودية في العالم، بما في ذلك فرنسا، يخيم الشك في باراك حسين اوباما الخائن بالقوة (الاحتمالي)". وأنت، "إيلي" تقول: "إسرائيل لا يمكن أن تنقذ نفسها بنفسها. فالصهيونية كانت حل قومي للمسألة اليهودية إلا أن هذا الحل خلق مشكلة عالمية تفوق طاقتكم وقدراتكم. فالمعضلة تستدعي تدخل وسيط يطيعه كل من الطرفين (العربي والإسرائيلي) ولو لزم أن يقوم هذا الوسيط بلي ذراع الطرفين. وأن الوحيد الذي بإمكانه القيام بهذا الدور هو الولايات المتحدة. أي أن يتوصل إلى أن يعيد طرف الأراضي المحتلة وأن يقبل الآخر حق الوجود الإسرائيلي كأمر واقع لكي ينعم كل من الطرفين بالبقاء. غير أن إحساسي متزايد بشأن فكرة"الدولة المنقذ". فالرجل "اوباما" لديه نوايا طيبة وانفتاح وإحساس بالآخر وقدرة على الإنصات.. نعم. أما قدرة على الفعل.. لا. ولا يرجع ذلك لاحتياجه للكونجرس لكي يمرر الإصلاحات الداخلية وأن تهمة معادة للسامية تحوم حوله وإنما لأن يديه مقيدتان بما وضعه من أسس الآباء المؤسسين للولايات المتحدة."

ويوفق" دوبريه" مبدئيا على ما يقول به "ايلي بارنافي"، في كتاباته، من أن من مصلحة الولايات المتحدة الحفاظ على صداقتها بالعالم الإسلامي "من أجل بتروله وممراته المائية ورؤوس أمواله". إلا انه يشكك في كفاية المصالح المادية كعامل حاسم في العلاقات الدولية. ففي تصوره أن الأساسي هو حدوث تغير في الحالة العقلية أو الذهنية إذ أن التصورات التي تتشكل لدينا هي التي تحدد طبيعة سلوكنا.

وينتقد كل من أوربا والولايات المتحدة حيال سياسة الشرق الأوسط وعدم العمل للتوصل لحل فيقول: "فأوروبا، غير المؤمنة، تمتلك موضوعيا الوسائل العسكرية والمالية والقانونية وبيدها الحل إلا أنها لا تتخذ الخطوة للتنفيذ بسبب "وعيها التاريخي التعس" حيال اليهود خاصة أثناء الحرب العالمية الثانية. أما الولايات المتحدة، المؤمنة، فهي لا يمكنها حتى مجرد مشيئة فرض حل نتيجة
"اللاوعي أو اللاشعور التاريخي" الذي يخصها ويحمل أسمه متجسدا في "العهد القديم". فالخلاصة أنه من سوء الحظ أن الأكثر تأهيلا للتدخل غير متاحين."

ويحلل "دوبريه" بشجاعة تأثير اللوبي اليهودي الأمريكي في سياسة الولايات المتحدة الخارجية فيقول: "فلا يجب التغاضي عن العلاقة ذات الخصوصية التي تربط بين إسرائيل والولايات المتحدة والتي لا تحتاج لعقد اتفاقيات خاصة. إذ ان "ايباك"، (لجنة الشئون العامة الأمريكية الإسرائيلية) أو اللوبي اليهودي، يتمكن من جمع نصف أعضاء الكونجرس (البالغ عدد أعضائه 300 عضوا) سنويا ليستمعوا إلى كلمة رئيس الوزراء الإسرائيلي التي تبث مباشرة. "فالايباك" هو الذي يحدد لأعضاء الكونجرس سياستهم ويكتب نصوص القوانين ويقدم لهم الشيكات. فالسيطرة على الكونجرس ليس بالأمر الذي يمكن إهمال أهميته."

ويرجع "دوبريه" العلاقة الحميمة بين مسيحي الولايات المتحدة واليهود إلى فترات نزوح المسيحيين من بريطانيا لاستعمار "العالم الجديد" فيقول: "تحالفكم لا انفصال فيه ويعود للقرن السابع عشر مع هجرة من انفصلوا عن الكنيسة الانجليزية." ولكن النتيجة الراهنة هي أنه "من ناحية تبعدكم ذاكرتكم للمحرقة عن العالم القديم وعلى النقيض لا مشاكل بينكم وبين العالم الجديد" ويضيف ساخرا: "فمن الأفضل الاعتماد على الرب من الاستعانة بالقديسين."

ثم يدلل على ما قدمه بقوله: "فمدينة نيويورك هي أول مدينة يهودية في العالم وهي مدينتكم. ولقد كتب "جون مارشايمر" و"ستيفان فالت" كتابا موثقا يظهران فيه عبثية سياسة الولايات المتحدة الخارجية التي تضحي بمليار مسلم من أجل 14 مليون يهودي في العالم." (صدر كتاب "اللوبي الإسرائيلي والسياسة الخارجية للولايات المتحدة في 2007).

ويقيم "دوبريه" مقاربة بين هجرة مسيحي أوربا ويهود العالم وكأنهما يحققان ذات الحلم ويصل لاستنتاج سوف يثير غضب اليهود عليه إذ يقول: "آلاف الانجليز المتطهرين عبروا المحيط، مثلما عبرتم انتم البحر الأحمر، لبناء "أورشليم الجديدة" وألف مدينة أمريكية على الأقل تحمل اسما توراتيا. فأنتم الأصل وهم الصورة. وربما تصبحون في يوم قريب "محمية" سياسية عسكرية ولكن بيدهم القوة وبيدكم السلطة." و"فأمريكا هي إسرائيل الكبرى التي نجحت وإسرائيل هي أمريكا الصغيرة التي تمر بمرحلة معاناة صعبة للنجاح. ولكن المشترك بينكما هو عدم الالتزام بتقديم كشف حساب لأحد إلا للرب في الأعالي."

ويقارن بين ما يطمح فيه كثير من اليهود المتشددين وبين ما حدث في القارة الجديدة فيقول:"لقد تم ترحيل آلاف الهنود في 1830 بقرار من الكونجرس ولم ترمش عين على تلك المأساة. أما بالنسبة لكم فالأمر صعب "فهنودكم" كثيري العدد والكاميرات في كل مكان."

لقد أجهضت عملية السلام بعد اتفاق "أوسلو" برغم ان الفلسطينيين لكي يكون لهم دولة وافقوا على تنازلات متعارضة مع مبادئ الأمم المتحدة التي تنص على حقهم في استعادة الأراضي التي تم احتلالها بالقوة. بل من حينها توسع احتلالكم أكثر وزاد عدد الحواجز والمستوطنات والمساجين. وسبب هذا الفشل راجع لعدم وجود آليات للإشراف وتنفيذ للاتفاق ومعاقبة المخالفات فور وقوعها."

ونضيف إلى ما يقوله "دوبريه" أن "شيمعون بيريز" أعترف بحجم التضحية التي قدمها الشعب الفلسطيني غداة وفاة ياسر عرفات في مقال نشر في صحيفة "لوموند"، في 12 نوفمبر 2004 ، حيث كتب: "منذ أصبح عرفات قائدا، فتح الباب لحل تاريخي مع إسرائيل، أي تقسيم الأرض لدولة إسرائيلية ودولة فلسطينية. فبرهن على شجاعته بالتخلي عن الماضي. لقد وافق على تنازلات مؤلمة مع إسرائيل بالموافقة على أن تكون الحدود هي حدود 1967 وتخلى عن خريطة تقسيم 1947 للأمم المتحدة بناء على القرار 181 الذي رفضه الفلسطينيون حينها.. قبل عرفات التغيير الذي حدث على أرض الواقع. ولكنه لم يقبل أن يذهب أبعد من ذلك. فعندما كان عليه أن يختار بين حب شعبه وبين أن يعيش هذا الشعب في ظروف أفضل اختار للأسف حب الشعب. فلم يكن مستعدا لقبول قرارات لا يمكنه الدفاع عنها أمام شعبه لأنها من وجهة نظره قابلة للنقاش".

ويقول "دوبريه": "إن أمريكا تنظر للعالم بعيونكم فهناك مغالاة في القرب بينكما ولذلك فإن الغرب لا يخدمكم لأنه يشعر ويفكر مثلكم أيا كان الخطاب الذي يقوله للاستهلاك أمام الرأي العام." ويستنتج: "فحين يصبح هذا العالم عالما خارجيا بالفعل ويكف عن "التآمر" معكم سيصبح مفيدا لكم ويمكنه أن يقدم لكم خدمة حقيقة. فالولايات المتحدة يمكنها للضغط تجميد التأمينات المصرفية الإسرائيلية ففي هذا ما هو كاف للتوصل لنتيجة."

ويحلم "دوبريه" ويدرك أنه يتوهم إذ يضيف: "وإذا ذهبنا ابعد فبإمكان الولايات المتحدة تشكيل قوة عسكرية دولية على حدودكم قيادتها في مكتب الرئيس الأمريكي مباشرة وأن تكون لتلك القوة العسكرية الصلاحية لفتح النيران على الجنود الإسرائيليين في حال المخالفة. فهل يمكن تصور ذلك دون ان يتصبب العرق على الجباه ؟ فهو ليس بقتل الأخ وإنما قتل للأب !"

ويستشهد ساخرا مما يحدث في لبنان: "لقد ظلت قوات حفظ السلام في لبنان في حالة شلل لمدة أسبوع عندما عبرت "بقرة" إسرائيلية الحدود ولا يجرؤن إطلاق النار عليها ؟ ودور هذه القوة مراقبة ومنع اختراق الأجواء الجوية ولكنها تسلك بنفس الطريقة. فلو تجرأ جنرال فرنسي من قادتها وأعطى الأمر بالتصدي لقاذفة إسرائيلية أو عربة مصفحة سوف يقال، في ذات اللحظة، من منصبه."

ويحلل "دوبريه" الأسباب في تصلب السياسيين الإسرائيليين بإعطاء شواهد على ذلك: "فالطبقة الحاكمة في إسرائيل تنفذ فكرة جوهرية وهي "عدم الانصياع للضغوط". فالصديق الغربي عليه ضمانة إمداد السلاح والأموال والمهاجرين و"الفيتو" وليس له حق المحاسبة أو التدخل." ويضيف" إن هذا لا يساعدكم حقيقة إذ أن "الفيتو" الأبوي التلقائي لمواجهة قرارات مضرة لكم يجعل من "الملك المراهق"، أي إسرائيل، طفلا مدللا."

ويضيف لذلك موقف إسرائيل الرفض المستمر للتقارير الدولية حينما يتعارض الأمر مع مصالحها أو تنتقدها فيقول: "كل التقارير التي قامت بها لجان نتيجتها بالنسبة لكم هو الرفض مثلما كان الحال من تقرير اليهودي "جولدستون"، المتعاطف مع إسرائيل، والذي رفضت حكومتكم التعاون معه. فحكومتكم تعتبر كل مخالف لها نيته ارتكاب جريمة قتل جماعي لليهود."

ويواصل بالكلام عن انتهاكات إسرائيل للقوانين الدولية: "ولأنه يتم منحكم كل شيء فإنكم لا ترفضون شيئا وتستخدمون أكثر الأسلحة تقدما بما في ذلك ما هو محرم منها دوليا وتنتهكون كل اتفاقيات "جنيف" بما في ذلك التنقيب والبحث الحفري. وتمارسون الترحيل القهري للمدنيين بالأراضي المحتلة. وترفضون التوقيع على الاتفاقيات الإضافية التي قد تقود إلى تعرضكم للمقاضاة أمام "محكمة العدل الدولية" في "لاهاي. علاوة على ذلك فإن الرؤوس النووية لديكم لا تخضع للتفتيش والمراقبة."

ويعرج "دوبريه" إلى المعاملات المهينة التي يتعرض لها السلك الدبلوماسي حتى من الدول الصديقة لإسرائيل فيقول: "أما بشأن اتفاقيات "فينا" الخاصة باحترام الحقيبة الدبلوماسية والدبلوماسيين والحافلات فهي تنفذ في كل بقاع العالم إلا لديكم." ويذكر حوادث واقعية للتدليل فيقول: "ان دبلوماسي فرنسي حجز 17 ساعة دون ان يقدم له الطعام والشراب عن نقطة تفتيش "إيريتز". بل أن قنصل فرنسا العام تم احتجازه ثلاث ساعات في حجرة ضيقة في "بيت لحم". ويضيف ساخرا: "وأمام هذا كان رد فعل باريس هو تصبب جبهتها عرقا". ويستنتج: "فيجب أن نكون أتراك للإصرار على اعتذار وتلقيه أما كفرنسيين فعلينا ان نقدم الخد الآخر."

ويواصل: "السلطة التي لا تقبل المساءلة عن أفعالها هي سلطة غير مسئولة تعاني من جنون العظمة أو مغالية. فبعد التقرير الذي قدمه السيناتور الأمريكي "جورج ميتشل" وتعارض نتائجه مع تصريحات الحكومة الإسرائيلية، في 2001، صرح "أريل شارون" : "ليس لأحد الحق .. لا أحد يملك حق تقديم إسرائيل أمام المحاكم الدولية". ويضيف "دوبريه": "فليكن. ولكن لنكف إذن عن الكلام عن دول مارقة." ويضيف: "لذا فإذا كان التحامكم بالغرب يمنحكم المناعة فإن انفصالكم عن الشرق يعرضكم لانعدام الأمن."

ويواصل "دوبريه" التعبير عن هواجسه في شأن تطور العلاقات الدولية بالقول بأن إسرائيل قد لا تتمتع بحضانة مماثلة للتي تتمتع بها الآن من قبل روسيا والصين والبرازيل والهند بعد عشرين سنة عندما يصبح الإنتاج الداخلي لتلك الدول متجاوزا للولايات المتحدة وأوربا. و"أن القلق آت من الشرق إذ كلما تزايدت التوجهات الإسرائيلية نحو الغرب أدار العالم الإسلامي ظهره لإسرائيل. ويزداد الأمر صعوبة بالابتعاد السريع عنكم من قبل تركيا حليف إسرائيل العسكري والاقتصادي والسياسي."

ويتصور "دوبريه" عالم الغد كسياج حول إسرائيل فيقول: "الواقع يكشف عن توسع الجبهة الإسلامية التي تحاصر إسرائيل بانضمام اندونيسيا وإيران وغيرهما إلى معسكر المناهضين. علاوة على ان الدول التي عقدت اتفاقيات "سلام بارد" مع إسرائيل مثل مصر والأردن تحمل شعوبها عداوة متزايدة لإسرائيل."

ويضيف تحليل للتحول الثقافي للمجتمعات الشرقية وكأنها ستخطو حتما نحو أحادية فكرية فيقول: "إن هجرة يهود الشرق بعد حرب 1967 لإسرائيل كان كارثة إذ نتج عنه سيادة أحادية فكرية إسلامية في تلك المجتمعات وهو ما بدأ يحدث أيضا الآن فيما يخص نزوح الجاليات المسيحية من بعض الدول العربية. فهذه الهجرات في رأي "دوبريه" هو ما يخلف عنه "جفاف حضاري" وبسببه يمكن فهم رفض هذه المجتمعات لتقبل "زرع جسم غربي" بها، أي للقيم الغربية. وهو خبر سيء لكل الأطراف."

أما أوروبا فهي ليست إلا كالشبح الهارب إذ تدعو الفلسطينيين لإجراء انتخابات وتقر بصلاحيتها إلا أنها ترفض النتيجة لأنها لا تروق للإسرائيليين. ثم في خطوة أخرى تجعل أوربا من إسرائيل الشريك الذي يتمتع بامتيازات وتشاركه في مشروعاته وتدفن رأسها في الرمال. أما كل المشروعات الأوربية مع الفلسطينيين فتحفظ في إدراج الاتحاد الأوروبي في "بروكسل."

ويتعرض لتفاصيل العلاقة الأوربية مع الفلسطينيين وخضوعها للأهواء الإسرائيلية فيقول: "ولم يطأ الأراضي المحتلة من بين أعضاء البرلمان الأوربي البالغ عددهم 785 إلا 12 منهم على الأكثر. ورفضت إسرائيل دخول 20 قنصلا أوربيا يصاحبهم عدد من الوزراء ولم تنبس أوربا بكلمة احتجاج. فقط تكتفي أوربا بعقد مؤتمرات وندوات عن المستقبل المشرق للفلسطينيين والتقاط صور تذكارية."

ويظهر التناقضات الدولية التي تتحمل سياسة التدمير الإسرائيلية: "أوروبا التي تمول تشيد مطار صغير وشبكة كهرباء ومشروع تطهير للمياه وتدمرها طائراتكم في ثلاث ثوان في كل مرة شاءت تدميرها. فأوربا لا تعوض فقط أضرار حروبكم ولكن تدفع أيضا الأموال الضرورية لسير شئون الخدمات العامة التي تقع على مسئوليتكم وعليكم الالتزام بها في وقت الحرب أو الاحتلال طبقا لاتفاقية "جنيف". ومن يدفع له كلمة يقولها غير أن أوربا توقع على الشيكات وتتصرف في صمت. فالضفة الغربية هي بالنسبة لكم أراضي استعدتموها ولكنها ارض محتلة طبقا للقانون الدولي، وبالتالي فأوربا بتصرفها تعينكم على الالتفاف على القانون الدولي.

أما التعليقات التي تصدر في الغرب فهي: "الأسف والقلق وعدم الموافقة تلك هي أقصى كلمات ردود الفعل على سياستكم طوال 30 سنة في تشيد المستوطنات أي إدانة دون عقاب ولو لمرة واحدة. فالمهم هو عدم إغضابكم نظرا لحساسيتكم كما يعرف الجميع."

ويضيف تحليلا نوعيا كخبير في الإعلام وموجها كلامه لصديقه: "لعلك لاحظت أن الدول الأوربية التي لم تسقط تحت الاحتلال النازي تترك الحرية للمراسلين في إسرائيل كتابة تقاريرهم دون تخفيف اللهجة. وتقوم الكنائس والجمعيات الإنسانية بالتحدث بنبرة حرة بما في ذلك النشاط من اجل توقيع نداءات وبيانات من أجل القدس الشرقية وغزة ولبنان. بينما تلاحظ أن ألمانيا تتحفظ تماما بشأن تلك القضايا الشائكة. أما فرنسا فموقفها معتدل وايطاليا في وضع وسط. فبريطانيا دولة يتحاشى الذهاب إليها جنرالاتكم بعد حرب غزة لأنه يمكن القبض عليهم عقب خروجهم من الطائرة بناء على مجرد أمر من أحد القضاة. في حين تتمتعون بأمن كامل في أي دولة كان اليهود يعيشون فيها قبل عدة عقود في انعدام أمن تام. ويمكن ملاحظة ظاهرة مدهشة بشأن الكنائس المسيحية فالكنائس التي تمثل أقليات هي الأكثر اعتراضا مثلما هو الحال بالنسبة لأتباع الكنيسة "الانجليكية" و"الارثوذكية" و"اللوثرية" في الدول "الاسكندينافية" فهي كنائس تسمي الأشياء بأسمائها وتنحاز للمسيحيين العرب. بينما الكنيسة "الكاثوليكية" وخاصة الكنيسة الفرنسية فتهتم أكثر بالصداقة اليهودية المسيحية عن الإخوة بين الغرب ومسيحي الشرق.

ويخاطب "بارنافي" قائلا: "أنت محق في كتابك "الآن أو ربما هيهات". إذ أصبح عاجلا التوقف عن هضم المزيد من الأراضي الفلسطينية وهو الهضم الذي كاد يكتمل وفي تحققه خرابكم وخرابنا. فخوف الدولة العبرية في أن تصبح يوما أقلية في بلدها يدفعها للعمل على تفريغ الأرض من السكان العرب وتحويلهم لمواطنين من الدرجة الثانية ووضعهم في جزيرة محاصرة. لن نقول تفرقة عنصرية فالكلمة سيئة السمعة."

فالمستقبل الذي أخشاه هو أن تستأنف حرب المائة سنة، التي مازالت في منتصفها، ويكون القسم الثاني منها في غير صالحكم وليس كما حدث في القسم الأول.

وينتقد "دوبريه" فكرة انتظار حل يفرض من الخارج كما يتصور "بارنافي" فيقول: "إن تصور أن الحل يأتي من الخارج فكرة مريحة ولكنها غير صحيحة. فلماذا لا يتم العمل ابتداء من الداخل أي بما لديكم ؟ فالغرب لا يطمع إلا في أن تقوموا بالانسحاب بشكل منظم إلى غرب "تل أبيب". فالخريطة التي وضعتها الأمم المتحدة على "انترنيت" ويتم تحديثها باستمرار تبين أنه طوال 30 سنة يتزايد التوسع في المستوطنات والبناء التحتي. وأنه في كل مرة خرجت تصريحات عن تقدم المباحثات صاحبها التسريع في التوسع الإسرائيلي."

ويضيف: "يلزمنا الإقرار بأن العقبة الحقيقة وراء ما يحدث هو أنتم ونحن. نحن لأننا جبناء وأنتم لأنكم جيدون إذ لم تخسروا إلا معركة "الانتفاضة الأولى" بينما نجحتم في تقليل الخسائر في حربكم على غزة وما خلا ذلك فلقد أنجزتم المهمة بنجاح. ولن أعود لتحالفاتكم السابقة التي لم تضع للأخلاقيات مكانة مثلما كانت علاقتكم مع إيران إبان حكم الشاه ومع تركيا في زمن الجنرالات ولا علاقتكم بجنوب أفريقيا في فترة التمييز العنصري واستقبالكم لرئيس وزراءها.

لقد عودنا حكامكم كل ستة شهور على الخروج إلى الإعلام "بخطة سلام " أو "بداية جديدة" أو "تاريخ نهائي". فأنتم تنظمون أفعالكم ويصاحب ضجيج الجرافات عزف موسيقى "الناي الساحر" لموزارت. فالذي له أهميه هو الكلام عن عملية السلام وليس النتيجة والتنفيذ. فعملية السلام يصاحبها افتتاحيات لا نهاية لها في الصحف ومؤتمرات وتعليقات ومصافحة أمام 5 آلاف صحفي من أنحاء العالم وأمام التلفزيون. وبعيدا عن الكاميرات والصحافة يتم في نفس الوقت بناء المزيد من المستوطنات."

فانتم تعلنون : "موافقون سوف نتفاوض" وفي ذات الوقت تطلقون أنكم أمام "هتلر جديد" : ناصر، حافظ الأسد، عرفات، صدام، احمدي النجاد والبقية تأتي. لأنه عاجلا أو آجلا يعود الوقع بأحزانه.

لقد لاحظت دون شك أن خرائط الطرق لسير العربات لا توجد بها كلمة فلسطين ونفس الشيء في الكتب المدرسية وسوف تجيب بأن إسرائيل ليست في كتب الفلسطينيين أيضا. ولكن الاختلاف أنهم يحلمون على ورق وأنتم موجودون في الواقع. هم يلجئون للسحر وأنتم لأعمال التشييد العامة. فالمغترب الذي يزور بلده بعد خمس سنوات من الغياب لا يكاد يتعرف عليه، وأنا شاهد على ذلك.

7- *إسرئيلان*

يقول "دوبريه" بوجود 2 إسرائيل وليس واحدة. ولذلك فإنه لم تقل بعد الكلمة النهائية لأن في إسرائيل ازدواجية خلاقة تتجسد في طبيعة البشر ولغتهم وسماتهم وينتج عنها ازدواج في الهوية لتصبح هويتين وربما أكثر وليس هوية واحدة. وهذه الهوية هي تجسيد لأمل في قراءة إنسانية لمصادر اليهودية وهو ما يبرر التساؤل عن أسباب البحث عن حل يفرض من الخارج في حين ان مفتاح الحل أمامك وعلى المنضدة في قاعة استقبالكم. وربما تكون تلك القراءة الإنسانية متجاوزة للنصوص المقدسة إذ أن اليهودية مثلها مثل الإسلام ذات جوهر له"مركزية لاهوتية" وليس "مركزية إنسانية" أي تضع الرب كملك للعالم وليس الإنسان وأن الواجب حيال الأول يكون على حساب الثاني.

يقول "دوبريه": "هناك إسرائيل كما في التوراة بالماضي البعيد نجدها اليوم في الاختلاف بين "تل أبيب" و"أورشليم"، العلمانيون والمتدينون، "رابين" وقاتل "رابين". وكل من الاثنين يحتضن الآخر ويصارعه. معركة لن تتوقف. فالقول بأن إسرائيل "دولة يهودية وديمقراطية" يمثل معضلة يصعب فهمها من قبل غير اليهود وعلى النقيض يقول الشعب المختار بإمكانية تعايش هذه الازدواجية." ويعلق: "غير أني أرى فكرة أن كل إنسان مزدوج ولكن يواجه احدهما الآخر وجها لوجه هو انفصام داخلي وهو سمة خاصة بكم. ويقول الجميع أن اليهود يبالغون فهم أحيانا "أيوب" وأخرى "يشوع".."هاملت" في المساء وفي الصباح "سيجفريد". أهي قوة أم ضعف ؟ انفصام في الشخصية أم خداع ؟"

ويضيف "دوبريه" بشأن الازدواجية التي لا توجد في إسرائيل فقط بل لدى بعض المثقفين من يهود فرنسا: "إن هذا الوضع من غير السهل عيشه بل مثير للغيظ لمن ينظر من الخارج. فهذه ازدواجية نراها أيضا في فرنسا من المثقفين اليهود الذين يعلنون، في "الراديو الثقافي" انتمائهم لقيم الجمهورية ورفض تأجيج قضية الهويات الثقافية وفي المساء يقول نفس الأشخاص في "راديو اليهود" بضرورة فهم أن هناك خصوصيات في مواجهة الشمولية والعمومية المجردة."

ويعبر عن حيرته وحيرة العالم: "إنكم تسيرون على قدمين ولكن أصدقاؤكم لا يعرفون على أي قدم يرقصون. فالشرعية الدولية هي التي منحتكم حق الوجود ولكنكم الآن تتهمون الشرعية الدولية بأنها غير شرعية. فالأمم المتحدة قضت بتقسيم فلسطين وأنتم تستحوذون عليها بدعوى وعد الهي." ويضيف تساؤلاته مخاطبا "بارنافي": "أنت تطالب بمقاومة الديانات القاتلة ولكن تحويل ديانة إلى سياسة ألا يجعل منها قاتلة ؟ فهل يمكن تصور شعب يتمسك بالقانون يكون في الوقت ذاته شعب الأمر الواقع ؟ كيف يمكن التكامل في التاريخ والبحث عن ملجأ "فيما وراء التاريخ" ؟ كيف تطالبون بوضع عادي على الصعيد العالمي وترفضون كل المبادئ العالمية ؟ فكل ما يخدم بلدي صحيح وكل ما لا يخدمها شر. الأمن أولا وانعدام العدالة أفضل من الفوضى. ما أغربها من يهودية. لقد طلبناكم بإنارة العالم ولكن ليس "بالفسفور" (إشارة لاستخدام إسرائيل للقنابل الفسفورية في غزة)."

ويعلق: "من هنا نشعر بالأسى أن يهيمن سيف إسرائيل على الفكر اليهودي. ولكن من حسن الحظ أن هذا الفكر يقاوم لديكم كما في الشتات، فهل سيكون له الكلمة النهائية ؟

ويناقش "دوبريه" قضية من هو اليهودي مشيرا إلى أن المناظرة حول المسألة مستمرة ويقدم تحليلا مفصلا للعهد القديم مستندا إلى دراسات العالم السويسري الكبير المتخصص في دراسة التوراة "البير دو بوري". فيقول: "إن كلمة "التوراة" أي "الكتاب" كانت نتيجة لخطأ في الترجمة للكلمة اليونانية "بيبليا" أو Biblia التي تعنى "الكتب". فنحن أمام قضايا هامة. إذ أن لعنة "نوح" على ابنه "حام" صوغت وبررت العبودية والتفرقة العنصرية في التوراة. فالكتب ليست حاملة لذات الرسالة فالتباين كبير بين "سفر يشوع" و"سفر أيوب" و"سفر نشيد الإنشاد". قل لي ما تحصد وبما تحتفظ أقول لك ما تريد وما تريد إخفائه. فهناك "توراة" عسكرية وعرقية بصورة مرعبة و"توراة" أخرى تبعث على الإعجاب وذات روح عالمية وتدعو للسلام بشكل مدهش."

وثم يتطرق لهلامية مسألة حدود ما يسمى "أرض الميعاد" فيقول: "فيما بخص رسم حدود "أرض الميعاد" لا نعرف بدقة ما الحدود الصحيحة. ففي "سفر التكوين"، 15-18، تمتد من النيل إلى الفرات (من مصر إلى العراق). ثم تتقلص بعد ذلك لتصبح "من البحر إلى البحر" (من البحر المتوسط إلى البحر الميت) ومن "جبل الشيخ" إلى "النقب". ثم في "سفر الملوك 2"، 14-25، تتحدد الحدود بما بين "حمص إلى البحر الميت". فيجب إذن احتلال سوريا وليس الضفة الغربية ؟ ولذا فعندما تتكلمون عن "أرض أجدادكم" عليكم تعيين هل هي تلك التي تحتلونها الآن وعليكم إعطاء الفلسطينيين الساحل والسهل لأن العبريين كانوا يقطنون الجبال أم هي الحلم المذكور بالتوراة ؟"

أما فيما يخص "الشعب المختار" فالسمات التي تميزه دون غيره من الشعوب هو أن له حق الحياة والموت على جيرانه من الكنعانيين وغيرهم... أما فيما يخص الأجنبي فيقول "سفر الخروج"، 22-21، "لا تضطهد الغريب ولا تضايقه. لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر".

وفي قراءة للتوراة يقدم "دوبريه" تحليلا سياسيا لأنبياء العهد القديم. فإبراهيم بطل يجمع حوله الجاليات ويتصالح ويعقد معاهدات مع الأعداء التاريخيين لليهود ويفتح منزله للجميع. فهو واسع الأفق شجاع وطيب بترك زوجته ونساءه وأطفاله (إسماعيل وإسحاق) ويهب نفسه للرب. أما يعقوب فهو خشن يقاتل من اجل أبناءه ونساءه ومن أجل الأرض والسلطة. والغاية لديه تبرر الوسيلة. فهو زعيم 12 قبيلة ومحب للعراك. يسعى للزواج النافع للاستحواذ على الأملاك والقطعان وضمان الوصول لأبار الماء وزيادة التناسل. فهو تجسيد للعقلية القبلية وممثل للانتماء السلالي وللمجتمع النموذجي. ثم هناك "موسى" نبي دون نساء ولا ذرية وتعلقه بالترابط الأخوي وليس القبلي. نبي ينشغل بالرب أساسا كقناعة وليس كانحدار من سلالة ويعمل على لم الشمل بناء على التوافق لذات الأهواء. فموسى نبي له أتباع ويعقوب كبير الأسرة يهمه السلالة التي تنحدر من نفس الروابط. وبالتالي فيهودي ينتمي ليعقوب مغاير ليهودي يتبع موسى. ويتخيل "دوبريه": "إن يهودي تابع ليعقوب سوف يصرخ ويطالب بنقل مقر الأمم المتحد من نيويورك لتستقر في "أورشليم". أما أتباع "إبراهيم"ـ الأب المثالي للتقاسم والحوار بين الديانات التوحيدية الثلاث فيرى في الانتقال لمقر الأمم المتحدة علامة للتصالح والأمل في سلام."

ولكنه يستنتج: "في الوقت الراهن يمر إبراهيم بمرحلة عصيبة. أما موسى فالرياح ليست مواتية له بعد. الآن هو زمن يعقوب الجالس على دبابته." ويتساءل: "ألا يجسد حزب "الليكود" فكر يعقوب بتعنته القبلي متزوجا مع روح "يشوع بن نون" كامل التسلح والحالم بالقضاء على السكان الأصليين؟" ويضيف: "إن حقبة "يعقوب" كانت الأولى تاريخيا واليوم تحتل الصدارة فعصر

ما بعد الحداثة يشعل الخصوصيات الثقافية برغم التقدم التكنولوجي وبذلك يأتي السلف ليزيدوا من عنفهم وحيث يعلن أب العائلة أن الأرض هدية من الرب ولكل قبيلة مكانها للأبد."

ولكن من حسن الحظ بحسب "دوبريه": "أن خلفاء "موسى" لم يستقيلوا ومازالوا يفتحون ثغرات وهو ما يقوم به العديد من مخرجي السينما الإسرائيلية والباحثين. فنحن نعيش حالة من القلق فانتصار القبلية هو انتحار للنبوة والأمل في أن تصاب القبيلة بالإرهاق ويعود رعاة الإنسانية. فإن كنا لا نملك استبدال أجدادنا فيظل بالإمكان اختيار من منهم الذي يزيد حظنا في استمرار الحياة."

ويضيف موجها السؤال لصديقه المؤرخ "بارنافي": "لا اعتقد أنكم بين خيار الموت العضوي والموت الأخلاقي. فهناك شعوب دينهم يتسبب في معاناتهم وشعوب تعرف ما الذي يفعلونه بدينهم. المؤرخون من أمثالك يتمسكون بالعمل الإرادي وأنت محق. فالديانات وخاصة اليهودية ليست عقيدة جامدة وإنما ممارسة. فالديانات ليست تماثيل رخامية يستحيل الاقتراب منها بل يعاد تشكيلها بالتدريج بحسب مطالب الوقت. بالتأكيد الشعائر أقل قابلية للتغير وبرغم ذلك فأكثر اليهود صرامة فكريا لا يرجمون الزانيات. فهؤلاء اليهود المتصلبون توصلوا لحل وسط مع الرب. أن ساحريكم برعوا في استنتاج المعنى الباطن وتأويل التأويل كما كتبوا في التلمود. فيتوقف الأمر عليكم اليوم للعثور على أبواب خفية في الجدران التي تغلق عليكم وفتحات في قلعتكم تفتحونها أو تحفرونها.

شكرا عزيزي إيلي" بتذكيرنا بعبارتك : "إن ما نفعله بمن فعلوا بنا هو دائما ما علينا أن نقدم الحساب عليه.

رد "بارنافي" على "دوبريه"

يرد "إيلي بارنافي" على صديقه "دوبريه" بحسب تناوله للقضايا. بالإقرار بأنه كان يمكن أن يوقع الكتاب كمؤلف لولا بعض الاختلافات الصغيرة ولكنها هامة.

حول الصهيونية

ويستهل بالرد بالقول أنه صهيوني "الحد الأدنى" لا يعارض أو يدين يهودي غير صهيوني بشرط ألا يرفض بدوره أن يختار يهودي آخر أن يكون صهيونيا. وأنه صهيوني لأنه يريد ان يكون هناك مكان آمن لليهود لا يطردون منه أو تساء معاملتهم فيه. ويتفق مع "دوبريه" بأن هناك "صهيونية بجبهة ثور "ولكن لا يجب إدانة "الصهيونية ذات الوجه الإنساني" نتيجة ممارسات الأولى التي تسود في إسرائيل منذ سنوات طوال وحتى اليوم.

ثم يضيف أنه صهيوني مناصر للفلسطينيين فعلا وليس كموضة أو كلافتة يسارية فهي قناعته ولا يريد بها "تمرير حبوب إسرائيلية مرة المذاق مع عصير فلسطيني حلو". فهو موقف أخلاقي ومنطقي. ويرفض ما قاله "دوبريه" بأن ذلك يعني مجرد مطالبته بدولتين متجاورتين إذ هو اعتراف كامل منه بحق الآخر بأن يتمتع بما يتمتع هو به.

ثم يضيف بأن هناك أيضا "صهيونية فلسطينية" في ميثاق منظمة التحرير تتحدث عن أحلام مماثلة لصهيونية اليهود. الفلسطينيون يقولون أنه بعد تأسيس دولتهم سيكون لديهم قانون بحق العودة ويتعلم الأطفال الأصول العظيمة للفلسطينيين التي تعود لعصور سحيقة، ثم سوف يذكرون "النكبة" أي المحرقة بالعبرية. وأن من لم يدرك ذلك لن يفهم أبعاد الصراع الإسرائيلي الفلسطيني. فالاختلاف بيننا، أن صهيونيتنا تحققت وهم لم يحققوا صهيونيتهم بعد. (مغالطة "بارنافي" تتمثل في أن الصهيونية تستند كما يقول هو نفسه على التوراة في حين أن مطالب الفلسطينيين تستند إلى التاريخ وليس لها مرجعية دينية).

ويضيف "بارنافي" إن الإسرائيليين برغم أنهم أغلبية في إسرائيل فأنهم أقلية في الوسط الذي يحيط بهم وبالتالي فمخاوفهم ليست بمرض وهمي. ومن هذا الخوف ومن التهديد بمحرقة جديدة تولدت حالة نفسية غير سوية وأن هذا ليس لتبرير ما يحدث وإنما لتفسيره. وكون النكبة هي خطيئة إسرائيل الكبرى فيقول بأنهم ليسوا بالمسئولين وحدهم عن ذلك دون الذهاب أبعد بدعوى أن ذلك فيه كتابات كثيرة.

ويعود لفكرة الصهيونية ليقول: "أنه في مواجهة المجانين الذين يقولون أنهم صهاينة وأنهم يجسدونها ربما أصبح من الأفضل إعلان موت الصهيونية. فالفكرة عندما تتحقق تموت بهذا التحقق فدولة اليهود موجودة ونشطة وخلاقة وقادرة على ما هو حسن وعلى ما هو قبيح." و"إن الآباء المؤسسين حلموا بإسرائيل "كنور للأمم" غير أن هذا مازال أبعد ما يكون عن التحقق."

ويضيف: "ولم تحقق إسرائيل أيضا وضعا عاديا في قلب الأمم لتمحو مثالب خلقها. فنحن مازلنا نشكل حالة استثنائية بين الأمم. "جيتو" مسلح ولكنه "جيتو" في أي حال."

فلقد حاول "الآباء المؤسسون تجاوز هذا الوضع وأنهكهم الأمر وحلت محل الصهيونية التقليدية صهيونية جديدة دينية يقودها مجانين الرب. وهذا لا يمثل عودة لأسطورة قديمة بقدر ما هو نتيجه للفتح الذي تحقق في حرب الأيام الستة. ولكنه أيضا للفراغ الذي حدث من قبل معظم اليهود العلمانيين لعدم بلورتهم لمشروع بديل لمواجهة الدينيين."

ويضيف: "ومن هنا تمسكي بصهيونية الحد الأدنى لمواجهة هؤلاء ولكن مشروعهم خطير وخطابهم لا راد له إذ يقولون: هذه الأرض هدية وهي التي وعدنا بها الرب. اقرأ التوراة". فمواجهتهم بخطاب في العدالة والسياسة الواقعية لا يفيد ولا يمكن فتح حوار معهم فنحن نعيش على كوكبين مختلفين. أما الذي يفهمهم فعلا فهم أتباع "حماس" و"الجهاد الإسلامي" لأنهم لهم نفس الخطاب."

ويستنتج: "لم تنته اللعبة بعد فمازال بيدنا أمل الحداثة وخاصة في المدن وفي السلام. فإذا تحقق السلام فقدوا موضوع عبادتهم لأنهم يعيشون ويتغذون من الحرب ونهاية الحرب تقضي عليهم."

حول معادة السامية

ويتفق "بارنافي" مع "دوبريه" بأنه لا يوجد تأجج لمعادة السامية في الغرب وإن كان فإنه ليس ضد اليهود وإنما ضد سكان الضواحي من المهاجرين. ويختلف مع "دوبريه" ويقول بأن ذلك "ليس رد فعل للصراع في الشرق الأوسط ولكنه مشكلة فرنسية داخلية نتيجة إهمال هؤلاء المواطنين من المهاجرين وأولادهم."

ويرفض "بارنافي" اعتبار معادة الصهيونية هي معادة للسامية ويعتبره من الغباء متفقا في ذلك مع "دوبريه" إذ يوجد يهود مناهضين للصهيونية أيضا ومنهم من هو معادي للسامية كنوع من كراهية الذات. ويضيف ولكن يوجد بعض المعادين للسامية يختفون وراء معادة الصهيونية. إلا إنه يرى أن رفض الصهيونية يعني عدم الاعتراف بحق اليهود في تقرير المصير. ويقر بأن "هناك بعض المدافعين عن الصهيونية لا يشرفونها ويسببون لها الأذى."

ويختلف "بارنافي" مع "دوبريه" في أن اليمين الأوربي المعادي للسامية أصبح مناصرا للصهيونية وأن اليسار القريب من "دوريفوس" أصبح مناصرا للفلسطينيين. ويعتبر أن المناصر للصهيونية في أوربا هو تيار الوسط السياسي سواء في اليمين أو بين الاشتراكيين أو الديمقراطيين المسيحيين. وعلى النقيض فالمعادين للصهيونية هم التيارات اليمينية المتطرفة والنازية وأقصى اليسار.

ويعارض "بارنافي" ما قاله "دوبريه" بشأن الرؤية الثاقبة لديجول وموقفه إبان حرب 1967. فيرى أن ديجول أخطأ في موقفه إذ لم يحاول تهدئة جمال عبد الناصر وإنما أصدر أمره لإسرائيل بعدم إطلاق الطلقة الأولى. وحينما لم تستمع إسرائيل لنصيحته وخالفته اتخذ موقفا ضد إسرائيل حرم فرنسا من التدخل والحيلولة دون احتلال الضفة الغربية. وهو احتلال نتج لمطالبة عبد الناصر من الملك حسين بفتح جبهة ثانية لتخفيف الضغط على الهجوم على سيناء. وفي رأيه "لقد أوقع عبد الناصر بالملك حسين ونجح للأسف برغم تحذيرات إسرائيل للملك الأردن. ففرنسا كانت القوة العالمية الوحيدة القادرة على التأثير على مصر وإسرائيل والفلسطينيين في هذا الوقت والحيلولة دون وصول الأمر إلى هذا الوضع التالي لحرب الأيام الستة." فديجول توهم أن هناك مخاطر باشتعال حرب عالمية ثالثة لم تكن محتملة الحدوث ولذا أخطأ في قراءة خارطة الجغرافية السياسية لهذا الوقت.

ويضيف بأن ديجول اخطأ في السمات الثلاث التي وصف بها إسرائيل واليهود "شعب نخبة واثق من نفسه ومتسلط" ولكنه صوب من رؤيته في مذكراته بعد ذلك بالكلام عن "الصديق والحليف الإسرائيلي".

حول المحرقة اليوم

يتفق "بارنافي" مع "دوبريه" في أنه لم تعد تكتب بفرنسا كتب ذات وزن لنفي حدوث المحرقة. وأن المحرقة أصبحت الآن في أوربا "ديانة اجتماعية" وأحد مكونات الهوية القومية الأوربية. إلا أنه يضيف بأن المحرقة كانت بعد حرب 67 "إيديولوجية مناهضة للامبريالية" تعمل لصالح إسرائيل إلا أنها بعد ذلك تحولت لتكون ضد إسرائيل كما تحاول كتابات قوله مستهجنة مثل مقال "ادجار موران": "إسرائيل- فلسطين: السرطان". إذ يقال:" إننا نفعل بالفلسطينيين ما فعله النازي بنا". ويغالط "بارنافي" في عبارته: "فالاختلاف هو أنه لا يمكن مقارنة موت صناعي مبرمج ضد اليهود بحرب بين قوميتين." فأين هي تلك الحرب بين قوميتين ؟

ويضيف: "إذا كان الاستغلال المبالغ فيه للمحرقة يصيب بالعمى ويمنع من رؤية التاريخ إلا أن المرور بتلك المأساة يمنح اليهود الحق في التسامح معهم فلا توجد وصفة جاهزة للاستخدام الحسن لها."

ويذكر "بارنافي" بأن الإسرائيليين كانوا لا يتحدثون عن المحرقة إذ كانت تشعرهم بالخزي حينما يتصورن اليهود كقطيع يساق للموت. فبدء التطرق لها جاء مع محاكمة "أدولف أيشمان" (مهندس المحرقة النازي حكم عليه بالإعدام في إسرائيل في 1962 بعد أن تم العثور عليه مختفيا في الأرجنتين) وبعدها بالتدريج تم إدخالها في البرنامج المدرسي." ويذكر "بارنافي": "كان أبني يقول لي "اليوم عندي محرقة" مثلما يقول اليوم "عندي حصة ألعاب رياضية". ويواصل: "ثم بدء الاستخدام السياسي يتطور من التطرق لها بمرارة إلى التذكير بها كنزف لدم اليهود على أيدي النازي وحلفائه كما يستخدمها "نتنياهو" الآن."

ويختلف "بارنافي" مع "دوبريه" في فكرة أن المحرقة ليست المؤسس لإسرائيل لأن الفكرة تعود للقرن التاسع عشر ثم مع وعد بلفور. فهي في رأيه "المؤسس الفعلي لإسرائيل برغم أن الفكرة قديمة إلا أن "هتلر" هو ما جعل من تحققها ممكننا. فلا يمكن تصور وجود إسرائيل بدون عقدة الذنب الهائلة التي استشعرها الغرب. فالدولة الإسرائيلية هي نتاج قتل اليهود." ويضيف بأن:"ممارسة ذبح اليهود مثل الأرمن والغجر تتم بيسر لأنهم شعوب لا دول لهم." يمكن أن نضيف لنتيجته إذن وكذلك الحال مع الفلسطينيين !

مخاطر الانطواء على الذات

يقول "بارنافي": "إن بعض المؤرخين الإسرائيليين توصلوا إلى تشخيص حالة الانطواء على الذات الإسرائيلي وذلك منذ 30 سنة مثلما فعل المؤرخ "زيفي لام". ويضيف "إسرائيل تتفهم الآخر وتضع نفسها مكانه ولكن ما هو سائد هو استخدامها للقوة كأصم (كأطرش) لتخفي ضعفها السكاني وانتهى الأمر بالخلط بين الغاية والوسيلة. أي أننا استخدمنا إستراتيجية "كلوفيتس" بشكل عكسي فأصبحت السياسة هي طريقة أخرى للحرب. فليس نسبة عدد الضحايا في كل طرف هو المسألة ولكن ما هو موضوع تساؤل هو غباء سياسة حكومة أورشليم."

العالم الجديد

يعبر "بارنافي" عن اختلافه التام مع "دوبريه" بشأن ضرورة البحث عن حل داخلي وعدم الاعتماد على قوى خارجية لإجبار الطرفين على حل للصراع. فيقول: "إن الفجوة أو الهوة بين أقصى ما تريد إسرائيل الحصول عليه وأقل ما يطالب به الفلسطينيون يستحيل التقريب بين طرفيها. فقبول الفلسطينيين بنسبة 22 ٪ من الأراضي التي حددها التقسيم هو تضحية بالغة من جانبهم ولا يستطيعون تقديم تنازلات أكثر نتيجة الضغوط عليهم من شعبهم ومن الدول العربية والعالم الإسلامي. ومن الطرف الآخر، فالتمسك المغالي فيه من اليهود الدينيين لا يسمح للسياسيين بالصمود أمامهم وخاصة في ظل انهيار معسكر الإسرائيليين الداعين للسلام." ثم يستنتج: "في ظل هذا الوضع سوف تستمر المباحثات حتى عودة ظهور "المسيح" ولن يتحقق سلام. وعليه فلا يوجد إلا حل واحد وهو أن يفرض طرف خارجي علينا الحل وأن هذا الطرف هو الولايات المتحدة ولا أحد غيره. أما انتظار أن تحدث تطورات في إسرائيل وتظهر قوة داخلية للسلام فهو رفاهية لا يمكن انتظارها إلى ما لا نهاية."

ويرجع أسباب الفشل بتلك الكلمات: "فلقد كسب اليسار الإسرائيلي الرأي العام ولكنه خسر المعركة السياسية. وتلك الخسارة نتيجة الفشل الهائل لمحادثات "أوسلو" وبسبب عمليات الإرهاب غير المسئولة ونتيجة عمى وجبن حزب العمل. فجميعهم افشلوا عملية السلام بسياساتهم التي تسير كما السلحفاة وكذلك بسبب بسياستهم الدعائية الرديئة."

ويعارض رأي "دوبريه" بشأن الصلف الإسرائيلي بقوله: "إنه ليس بصحيح أن إسرائيل لم تخضع للضغوط الدولية إذ بعد 1948 انسحبت من غزة وفي 1957 انسحبت من سيناء تحت الضغط السوفيتي والأمريكي وفي 1973 خففت الضغط عن الجيش الثالث المصري تحت ضغط "هنري كيسنجر" ووقعت اتفاقية "فك الاشتباك" التي أدت موضوعيا لانسحاب الجيش الإسرائيلي من سيناء. علاوة على تراجعها مرات متعددة في حالات احتجاز رهائن." ويستخلص: "فإذا كانت الضغوط لا تعني الانتحار فهي فعالة وتتوقف على من يمارس الضغط وشدة هذا الضغط."

ويعبر "بارنافي" عن غضبه حيال ما يقوله "دوبريه" بشأن وضع اليهود في السياسة العالمية بقوله :"إنه من الخطير القول أن إسرائيل متواجدة في بيت عنكبوت واسع مسلحة بثلاثة أسلحة مطلقة هي القنبلة الذرية والكتاب المقدس والمحرقة وأنها تتحكم في العالم".

ويضيف: "إن غياب أوربا عن لعب دور في الشرق الأوسط ليس له علاقة "بالنجمة الصفراء" ولكن لأن أوربا لا وجود لها في أي مكان في السياسة العالمية." وفيما يخص قوى حفظ السلام فرده يدعو للضحك إذ يقول: "إن هذه القوى لا تتدخل فقط إذا تعلق الأمر بإسرائيل ولكن أيضا مع من يهربون السلاح الإيراني لحزب الله.

إذا كان صحيحا وجود علاقات خاصة بين إسرائيل والولايات المتحدة مؤسسة على "الكتاب المقدس" فإن ذلك لم يكن هو الحال دائما فطوال العقدين الأولين من وجود إسرائيل لم يكن لتلك العلاقة أهمية. فهي علاقة بدأت عندما تراجعت فرنسا في الحفاظ على مكانتها كحليف أكبر للدولة العبرية. ولقد مرت العلاقة مع أمريكا بلحظات عصيبة بل تهديد للعلاقات الطبيعية خاصة إبان فترة "إسحاق شامير" الذي دفعته الولايات المتحدة في عهد "بوش" الأب للمشاركة في مؤتمر "مدريد" بالدفع بالقدم في مؤخرته "بالشلوت". وكانت العاقبة أن فقد "شامير" مكانته لصالح "إسحاق رابين" وهو ما يعني أن أي سياسي لا يجب أن يغضب حليفنا الوحيد الفعلي في العالم."

ويبلور اختلافه مع "دوبريه" بقوله: "ومن هنا فالتمسك إلى هذه الدرجة في التحليل بما هو مقدس على حساب حقيقة واقع الوجود الصعب يفقد السياسة دورها. فدائما ما تنتصر العقلانية على لا عقلانية الإيديولوجية. وللمصالح أيضا مكانها ومن الواضح أن مصالح "الليكود" متعارضة مع المصالح الأمريكية. وبرغم ذلك فإن الأمريكان لا يعطون أهمية كبيرة لحلفائهم في الشرق الأوسط بحسب استطلاعات الرأي العام. فالمشاعر تتغير والمصالح أيضا. ولذا فالالتصاق بما هو مقدس كرؤية مخاطرة تهمل ما هو غير مقدس أي السياسة.

إسرائيلان

يتفق "بارنافي" مع "دوبريه" بشأن وجود أكثر من إسرائيل واحدة. ويعلن أن تلك التي ينتمي إليها "منفتحة على العالم العلماني والعقلاني".. وإسرائيل الأخرى "متعبدة، متمركزة حول أرض تقدسها وسجينة لاعتقادات عتيقة ولكن المدهش أنها تصنع منها إيديولوجية حديثة غريبة عن الصهيونية الكلاسيكية وعن الصهيونية الربانية." وعلى نتيجة هذه المواجهة "سوف يتحدد مصير إسرائيل فإما محببة أو قبيحة بين الأمم. "جيتو" مسلح أو عضو محترم داخل الجماعة الدولية." ولذا "فإن إسرائيل التي انتمي إليها لها أفضلية على الكثرة العددية إذ يكونها نخبة ذات نوعية مميزة ولديها شغف لا يقاوم نحو الحداثة."

ويقول صراحة: "وفيما يخص الضرورة العاجلة للسلام تساءلت دائما حول أسباب حالة التقزز لدي اليمين من انجازه، ولدي الإحساس أنه يرجع لشعور داخلي بأن السلام سيقود حتما إلى نهاية اليمين."

وينهي ملاحظاته: "إن كل معسكر يعد حلفاءه من اليهود ومن غير اليهود. فهم بخوفهم القديم من معادة السامية يستعدون للعراك حتى أخر إسرائيلي بل أخر أمريكي مسيحي من المنتمين للكنيسة الانجيلية التي تتحدث صهيونيتهم عن علامات عودة "المسيح الملك". ونحن نشكل في معسكر اليهود المدافعون عن الأخلاق ومعنا غير اليهود من أمثالك. وما أحوجنا لأصوات تماثلك بصبرك وعنفك وعظمتك برغم مبالغتك أحيانا ولكن دائما إنساني. فليت كل من ينتقد إسرائيل يشبهك.

حمل المقال من أسفل



إلي صديق إسرائيلي .. ترجمة وتلخيص لكتاب : المفكر ريجس دوبريه.. مصطفى نور الدين

أي رسالة أو تعليق؟